زيارة طبيب

مجموعة قصصية

عباس مدحت البياتي

زيارة طبيب

مجموعة قصصية

الكاتب

عباس مدحت البياتي

المانيا

إهداء

أهدي هذه المجموعة الشيقة من القصص إلى:..

أبني الغالي وزوجتي الغالية

وإلى القارئ العزيز

عباس مدحت البياتي

رحم الله المتنبي

أعز مكان في الدنى سرج سابح.....

وخير جليس في الزمان كتاب

****

ما كل ما يتمناه المرء يدركه ...

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

****

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه...

وصدَّقَ ما يعتاده من توهم

المضمون

1 القطة 6
2 القوقعة..... 31
3 الفندق..... 37
4 العقربة 45
5 الكرونا..... 51
6 الزنبقة..... 67
7 زيارة طبيب..... 81
8 البار..... 98
9 باقة ورد..... 109
10 لسعة نملة..... 117
11 مجرد لقاء..... 128
12 عواصف الشتاء..... 132
13 رقصة الألم..... 154

قصة السفر

كنتُ قد أنهيتُ لتوّي إجراءات تصديق جواز خروجي من مطار أبوظبي، وذلك بختم الجواز بختم إذن المغادرة، وكان ذلك في يوم السبت المصادف 2015/9/20. اتجهتُ إلى صالة الانتظار، وجلستُ في أحد جوانبها على كرسيٍ خشبيٍ منفرد، منجّدٍ بأجود الخامات، منتظرًا لحظة ولوجي إلى داخل الطائرة. وما إن مرت الدقائق، حتى اكتظت الصالة الواسعة بالمسافرين، ولشدة الزحام امتلأت الكنبات والكراسي عن بكرة أبيها، بحيث نادرًا ما تجد فيها كرسيًا أو مقعدًا شاغرًا.

كان المنظر، إلى جانب السجدة الأخيرة التي يختلج بها السفر، هميمًا من وجهة نظري، دبقًا، ثقيلًا، تراخى فيه صمتٌ مدقع، أوطن مخالب الشك في أدمة الذاكرة، وأصاب رقائق الصبر بصدى العناء والملل، نتيجة فراقي لغاليتي، حبيبتي، وزوجتي. لحظات صمتٍ وسكونٍ حملت في أسفارها الكثير من الغيض والفيض، اهتز لها العقل والبدن، وشطّت الروح عن الفكرة، حتى صرتُ أهجس بذاتي تهرب من ذاتي إلى حيث التيه والخواء، تحتضر، وفي ظني وضميري يخفق هاجس غياب الحبيبة. حينها سهوتُ في أتون الفكرة التي أبغي تطبيقها دون إرادة مني، ألا وهي البحث عن مأوى جديرٍ يلمّنا، عن استقرارٍ في جوف الغربة...

بتُّ أعيش صراعًا بين واقعي التعيس وحلمي الرغيد الذي أتأمله، وقد وجدتُ دوافع داخلية تشجعني على تجاوز عقدة

السفر بشيءٍ من التضحية والنسيان وعدم المبالاة، لتأمين خط المستقبل الذي أراه قد انقطع دابره في وطني، وأضحى خطًا أجوف، دميمًا، لذا بتُّ أبحث عن بديلٍ له في جوف غابةٍ مجهولة من الغربة.

وأنا في تلك الحيرة من أمري، كان قد شطّ الذهن بين تلك الوجوه المارقة أمامي ووجه زوجتي التي كنتُ قد فارقتها قبل سويعاتٍ فقط، إذعانًا لصوت الغد والمستقبل الذي بات يصرخ في دواخلنا، إضافةً إلى القلق الذي اعترى ذهني بسبب سوء أوضاع الوطن، دون إمكانية العودة إليه، على الأقل في الزمن القريب.

ذلك القلق أرعبني، أصبح له مخالب ذعر، صار كجرس الجداء معلّقٍ في عنقي، يذكرني بأمسي، ويحذرني دون أن يهدأ ضجيجه... هكذا لاعت أذنيّ جلجلة صداه، وأضحى لذلك الصوت لثغة في النفس واللسان، أغشاني بالوعثاء والعناء والقلق وعدم الاستقرار، حتى وأنا أعيش خارج الوطن.

حينها كنتُ قد حجزتُ تذكرة سفرٍ على متن طائرة الإيرباص إلى إسطنبول، والمحددة كرسيها بمقعدٍ برقم 23 من المقاعد العامة، والذي موضعه يتوسط الطائرة، قرب النافذة من جهة القلب.

وأنا جالس في تلك القاعة، لمحت سيدة ثلاثينية، رشيقة، فاتنة، جذابة، تتنقل بخفة بين أرجاء الصالة، تهجس بها شبقة،

غـرة، مغنجـة بالسـحر مـن رأسـها حتـى أخمـص قـدميها. بمفاتنهـا، هجست بها نسخة كربونية طبق الأصل من زوجتي.

بطلتهـا ومفاتنهـا، ضـاهت فتنـة زوجتـي مـن حيـث الشـكل والقـوام، فلفتـت انتبـاهي مـن بـين جميـع النسـوة اللاتـي دخلـن الصـالة دون قصـد. لأناقتهـا وحسـن قوامهـا، اسـتقطبت أنظـار الجميـع؛ حتـى خلتهـا زوجتـي، لمـا بينهمـا مـن شـبه كبيـر وتناسـق مبهر في الهيئة واللباس، وحتى في قسمات الوجه والسن.

شـغلت تلـك السـيدة كرسـياً قبـالتي، فحفـزت فـي نفسـي شـعوراً بالاهتمـام، وكأنهـا الوحيـدة التـي ستسـافر معـي فـي الطـائرة. صـببت جـام همـي وقلقـي وولعـي فـي كـأس فتنتهـا، حتـى أوهنـت مشـاعري بأنهـا زوجتـي، فزادنـي ذلـك إرباكـاً ووهنـاً وإلحاحـاً فـي معرفـة هويتهـا. أغـدقت فـي متابعـة سـطوع ذلـك الألـق بتركيـز مفعـم بزهـدٍ مبـالغ فيـه، حتـى حفظـت جـلّ ملامحهـا وثـراء مفاتنهـا عن ظهر قلب.

هجسـت بـذاتي أننـي ارتقيـت سـلم مشـاعرها وهـي تتصـفح صـحفها المغنجـة بالفتنـة، بشـيء مـن الرغبـة والتأمـل. ومـع إلحـاحي السـليط، شـدت انتباههـا، وكأنهـا رقـت لملاطفتـي ومشاكسـتي، وكأنهـا التقـت نظيرهـا، جـراء الوحـدة والغربـة التـي شـغلتنا. فباتـت بـين الحـين والآخـر تمحقنـي بنظـرات خجولـة، فيهـا "إنَّ".

مـن أول وهلـة، مـع دخولهـا الصـالة، سـحرتني بمفاتنهـا، وجعلتنـي أقارنهـا بقرينتـي. خلتهـا هـي ذاتهـا التـي تركتهـا فـي

البيت، قابعة بين جدران الوحدة والتأمل قبيل سويعات من الآن. للشبه الكبير الذي تطابق في اللبس والأناقة وتقاسيم الجسد والجاذبية المنبثة من قوامها الرشيق، تملكت مشاعري دون غيرها من النسوة، ودون إرادة مني.

خلتها جاءت تتعقب هوسي لتودعني، وكأن روحها تقمصت روح هذه الفاتنة لتتجسس على سلوكي وطيشي ونزواتي حتى وأنا بعيد عنها. هجست بها قرينة زوجتي، تلبستها كجنية، تلبست زوجتي، تلك التي صورتها تدور في مخيلتي بمرافق الوجوه التي أقابلها، حيث المرأة تبقى مرآة ذاتها وكيانها، متعلقة بروح زوجها وإن غاب عنها زمناً ما.

هكذا بدت لي روحها هفهافة تدور حولي، وأنا أحاول قضم تفاحة فتنتها المعلقة بشجرة ذاكرتي وهوسي ومخيلتي، لتخرجني من لجاجة غروري ونار حماقتي إلى جنتها الواسعة... هكذا وسوس لي الشيطان، وعسى أن تأخذ بيدي تلك الفاتنة إلى باحة جنتها الشيطانية، تعوضني فقدان زوجتي.

خلتها سمكة ترغ في شطآن صمتي، وعلى مرأى من عيني، وبمحيط قلبي، فتتبعت مسارها علناً، علني أصطادها، علها تنقذني من تهيؤاتي وتيهاني وانشغالي بفكرة السفر والحلم الذي أبغي نيله.

هجست بها وقد حلت على رأسي كمطرقة حداد، سرقتني من نزاهتي ووجاهتي إلى عالمها الداني، وتركتني أتطفل على أغصان مفاتنها، وفي فلاة سحرها، كقشة أشتط بها ذاتي من

بين ثنايا وخبايا أرجائها وأشواكها، أسوم نفسي لعالمها الداني بما لي من قيمة ورجولة ودين. كأني بذلك أدلق عالم الود في أحضان زوجتي.

مالت نيتي لمحاولة جمع ثروة مفاتن تلك الجميلة من جهة، والحفاظ على سفر التكوين العائلي المبجل من جهة أخرى، علني أعبر مجاز الغربة والعُقد، بحثاً عن وهدة استقرار وراحة تجمعني بزوجتي.

ما إن جلست قبالتي، حتى هيجت مواجع القلب بفراق الحبيبة، وجنحت الروح إلى أتون الذاكرة، إلى مهاجع الود والطيبة، إلى الشهقة واللهفة، إلى تنهدات الروح ونبذ عقد الوطن ومداهنة جوائه. صارت تثير في الوسط رياح الود، تريق مؤثراتها في صحن الانتماء، وغدت تميس هاجس الأسرة بشكل مباشر، سواء أبينا أم رضينا.

جنحت لتلك الأماسي من الصمت والهدوء والرجاء التي جمعتنا على سفرة الألفة والوداد، إلى الضحكة والنكتة والنزوة والشك والعناد والعكرات؛ نتيجة ولعي وجنوني بها، وتعلقي بسر تلك الأصفاد من السحر والأوتاد التي جمعتنا، حتى في مشاكلنا ونزاعاتنا وعركاتنا. أهجس بها متجذرة بأنفاسي، متعشقة في مسامات جسدي وذاكرتي، ذائبة بروحي، لن تفارق وجدي إطلاقاً ولو قيدتنا الشدائد.

ذلك ما دفعني أن ألوك ملعقة الود بكأس تلك الفاتنة، وجدت روحي تمتطي روحها، وكأني أُهامس روح زوجتي. بدت

النظـرات تنغـرز بسـحر مفاتنهـا، أطرافـي تحـيط خصـرها، دخلـت فـي متاهـة الشـك وأنـا أركـب مركـب الخيـال، بـل هجسـت بهـا وقـد دخلـت فـي صـلب أحلامـي، طافـت فـي فكـري، بـتُّ أتبعهـا كطفـل يتبـع فراشـة فـي جنينـة، عسـى أن أجـد فـي فتنتهـا حـلاوة فـاتنتي، أن أوقـد فتائـل صـبابتها ببريـق مـن قبسـي، لأرتـع بعذوبـة غنجهـا وديبـاج أهوائهـا وقفطـان روحهـا، بـتُّ أعـرك ذاتـي فـي خضـم تلـك الوقائع التي جذبتني لسرائرها.

وأنـا أحـاول أن أرغ ولعـي بكـأس فتنتهـا، كانـت قـد أصـابت وجـدي بسـهامها، هجسـت بهـا تلاحقنـي سـرًا بمفاتنهـا قبـل أن أخطـو خطـوةً تجاهها. مـن خـلال نظراتهـا التـي أزفّـت، تحـوك غايتهـا بـين أحـداقها، التمسـت مقصـدها، وكـأن روح زوجتـي هـي التـي تتبعنـي بعـد أن غشـيت بروحهـا. كأنهـا أطرقـت أذنـيّ بصـخب ذلك الصمت الدائر بيننا.

بـذلك العنـاء المقسـوم بيننـا، جعلتنـي أسـرح فـي فـيض ذلـك الألـق المشـع مـن وجههـا، وبالجاذبيـة المراقـة فـي ملامحهـا، والمـراءة فـي تقاسـيم جسـدها، بشـيء مـن العجـب والتحـدي. للتنـاص الواضـح والتوافـق الحاصـل بـين فتنتهـا وفتنـة زوجتـي، وبـذات القيـاس والبهـاء، حتـى أنـي هجسـت بـذاتي مأسـورًا بفتنـة زوجتـي دون شك.

وددت التقـرب مـن تلـك القطـة الشـيرازية الأليفـة، النـادرة، المشـبعة بالأنوثـة وجميـل الطلـة، بـتّ أبحـث عـن فرصـة تقربنـي منهـا، تقحمنـي فـي مجـرى أهوائهـا ومحادثتهـا، لغـرض تسـليك

الوقت القادم، والبحث عن سر لغز الشبه الحاصل بينها وبين زوجتي من جهة، ودرجة انحراف ذهني في متاهة تلك الفاتنة من جهة أخرى.

مع شذوذ فكري، كنت أتحزب بآيات من القرآن، عسى أن أتخطى مشواري التلاقي بسلام.

تركت عيني تتلصص محيطها، بما يشغلها، تستقطب الفرص المتدحرجة أمامي، بشيء من الرغبة والأناقة والعبثية. فلست ربيبا في تجربتي، ولا حاذقًا بمعزل عن الناس المحيطة بي، ولكن بشيء من البلاهة والحماقة التي ركبتني، عسى أن تسنح لي فرصة حقيقية للتعرف عليها، لأعشق غايتي بتلابيب ديباجها.

كانت تجلس إلى جانبها امرأة عجوز شمطاء من جهة الشمال، ورجل أربعيني أصلع، يرتدي بدلة رمادية ونظارات سوداء، قابعٌ يمينها، كأنه رجل مصدور.

لم تكن لها صلة بهما، لذا تركت أحداقي تحلق في فضاء تلك الفاتنة بكيفية. ولكسر حاجز الجمود الحائل بيننا، تركتها تخزر ملامحها، وتفاضل جسدها بشيء من الشراسة والعبث دون حياء، حتى أني تعجبت كثيرًا من جرأتي التي ماجت في حقل مفاتنها كجدول يشتط طريقه، دون أن أعير اهتمامًا لمحيطي من البشر.

وأنا في تلك اللحظة الرعناء من العناء الذي شاقني، خلتها شمسًا تدور في فلكي، لما فيها من حيوية وتأمل وبهاء وإيباء، مسروقة من صفاة زوجتي. خلتها جنينة ترتع بخوار أرض بضة، تجذبني إليها، أتنزه بها كيفما أشاء.

كان عليّ تتبع حيثيات مخارجها حتى أدرك غايتي، صرت أدور حولها بتلك النوايا الخبيثة، وبشيء من التطفل، عسى أن أجد لديها ما يعينني على تجاوز حدود الصبر، عسى أن أعبر بها جداول الروتين، وحقل الشك الأصفر الشائك في حدقي. اعتبرتها كتابًا جديدًا أتصفحه، لأسرق منه متعة تغيثني الطريق، وتلمع في ذاتي فكرة السفر. لذا صرت أتبع سرها بشغف، بنهم، وأنا أسير خلف ذلك الشك من الغي دون إدراك. اعتبرتها زهرة توليب تستقطب ذاتي المريضة، صرت أدور حولها كدبور غلس، أود امتصاص رحيقها، وأشم عطر مسكها المضاع.

ذلك ما كان ظاهرًا أمام الملأ، دون أن ينتبه أحد منهم إلى اللغز الدائر بيننا وفي جعبتنا، وعما يكمن في نظرتها من مخاتلة وشراسة نمرة، تتبع مآربي، تحلم بافتراسي، وأنا قابع أمامها كيمامة مسجورة بتلك الفتنة.

تلك الحالة من الطمأنينة راغت في داخلي، جالت في خواطري، جدلت الرغبة بفتائل عينيها الملظتان، رغم الفزع والريبة المرّة التي صرّت بيني وبين حبيبتي، كهاجس بها يخنقني، لعدم إيفائي بالعهد الذي قطعته أمامها على نفسي...

تلك القطة جعلتني أنسى ذاتي المتغطرسة، المدانة بمعاني عزلتها وعزتها، لأتعقب خطوط السحر بذاتي المسكينة، المستكينة جوارحها أمام وجه ومعالم تلك الحورية، محاولًا اقتفاء أثر جنوحي لأنوثتها بأثر جنوح ذاتها في رجولتي.

هكذا جعلتني أنشغل بها، صرت أتبعها دون يقين، بتوافق رغبتي مع رغبتها، محاولًا إسناد ذاتي بذوات أخرى نائمة بداخلي أو متلبسة بها، أحيانًا أشعر أنني مركّب من عدة شخصيات، أينما وضعت نفسي تلبست الحالة والشخصية الجديدة. فهي جديرة بتقمص الحالة الطارئة كيفما تكون، تصلح لتمثيل الدور بجدية عالية.

أظنني بارع في مجال التمثيل، أتمكن من تقمص كل الأدوار وتقليد الشخصيات بحرفية. أجد في ذاتي شخصية الأستاذ والطالب والمتسول والمخمور والعاطل والمخبول والراقص والسياسي والمثقف والراقي، مجتمعة في نفس اللحظة، في نفس واحدة.

أنا ممثل بارع، أستحق جائزة الأوسكار. لذا كانت زوجتي تحتار في تشخيص شخصيتي المتقلبة، وذلك ما جعلني أطاوع هوى الظرف والأدوار المناطة إليّ، مع التحكم بتفاصيل الغاية المراد صيرفتها، حتى أصل بذاتي إلى شاطئ الغاية برفقة من أهوى، دون كلل أو ملل.

لا أدري إن كنت مميزًا في هذا المجال بين البشر، أم أنها حالة اعتيادية تفسر خصائصي، أم حالة اعتباطية غثيثة أتقمط

بهـا دون إرادتـي. ومـا تلـك التـي تعلقـت بهـا سـوى وسوسـة شـيطان، ذكّرتنـي بجنـوني وولعـي وهيـامي وغرامـي بزوجتـي، لـذا تماديت فـي غيـي تجـاه تلـك القطـة التـي لا أسـتطيع فـك أنشـوطة عقـدها عـن سـاقيّ، لأنهـا تحمـل فـي غيّهـا جمـرات غـنج حبيبتـي، وكـل ظنـي أن أكـون جـديرًا بهـا، أن أستكشـف أسـرار تلـك الفتنـة وما يخفق خارج حدود فتنة زوجتي.

ذلـك الشـيطان ذكّرنـي بلـون الشـبق الـذي لا تنطفـئ نـار جمـره فـي صـدري وحـدقي. لـم يكـن فـراق حبيبتـي فـراق وداع، بـل فـراق لقـاء وحلـم وأنـاة، فـراق صـمت وذهـول وغـزل يغـويني. مـا فارقتهـا إلا لتجديـد لقائهـا، لأحتضـنها بشـبق يفـوق الـذي أكنـه لهـا، لأشـتاق إليهـا وأعـود بسـحر يرفـأ جنـوني بهـا، لأعـيش بقيـة عمـري بـين الجفـن والحـدق، لأشـنّف أذنيهـا بخُلـدٍ مـن سـحر الشـوق والودق والهيام باللقاء.

كنـت قـد تركـت زوجتـي تعمـل فـي وظيفتهـا كشـعلة لا تنطفـئ، منشـغلة بفتـرة الإعـداد والتكـوين الفكـري للتلاميـذ، فتـرة حرجـة مـن التوافـق والترتيـب، لا بـد لهـا مـن أن تـتمم مشـوار ألقهـا التعليمـي، حيـث لا ينبغـي أن تتـرك فراغًـا فـي أذهـان التلاميـذ والإدارة لتكـون برفقتـي. لأن المبـدأ مصـون، ولنـا غايـة تقبـع فـي الـنفس كغايـة يعقـوب لا نـود أن نشـيح عنهـا. حينهـا تركتهـا عصـية على الزمن، حتى يعود بنا الزمن إلى أبجدية الحياة.

كانـت تلـك الفاتنـة ترتـدي نظـارة شمسـية صـفراء اللـون، ومـا إن رفعتهـا عـن عينيهـا العسـليتين، حتـى فاضـت بواحـة سـحرها علـى

محيط الوجنتين، رفلت فضاء وجهها بفتنة غاية في الألق والجمال، كإسهاب فتنة عيني حبيبتي حين توضئ وجهها بفيض السحر وأنا في كنفها.

عيناها المشعتان بالفتنة، طفقتا تلمعان في وجهها بسحرٍ غريب، أضاءتا مساحة الحسن من الوجه. تلك العينان بانتا كقمرين انبثقتا من خلف سحب جفنيها، سهدتا معالم الوجه المشرق بفتنتيهما، ذلك الذي أشبهه بقرص خبز صباحي محمّر، لجاذبية البشرة والملامح المغنجة به.

بالتفاتها يمينًا وشمالًا، هجست بها تبحث عمّن يعينها، عن وجه تألفه يزيح عن ذاتها شبح الوحدة، ربما تبحث عن حرية مطلقة لملاحقة ما تجرأت به في مشاغبتي. هكذا خُيّل إليّ المشهد، وهو ما جعلني أتبع سر نجواها.

باهتمامها بنفسها، أبدعت في تسليس مكياجها، أراقت الشفاه بمسحة شفيفة من حمرة وردية لاذعة، ضاهت بها رقة الأنف المغنّج بالشموخ والألق، ليسطع كمرفأ شاخص على مساحة الوجنتين ببهاء الشفق.

بحذاء كعبها العالي، ارتقت بطولها مقاس طولي في القياس، كما كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية نسائية سوداء اللون، وضعت فيها مرآة صغيرة، وأقلام مكياجها، وهاتفها، وحافظة نقودها، وجواز سفرها، ذلك ما تبين لي فيما بعد من خلال استعمالها ومراقبتي لها عن كثب.

شعرت بأحداقي لا تشذ عن فتنتها قيد شعرة، حتى أني توجست خيفة من ملامة المحيطين بها، أو من مراقبة أمن المطار لي، خاصة أن الأسقف مزروعة بشبكة عنكبوتية من كاميرات المراقبة التي تحرس المطار من العابثين والمتطفلين، تتوجس كل كبيرة وصغيرة لا توائم الطبيعة المرادة. وأني بذلك كنت قد تجاوزت الحالة المألوفة، كأني أرسلت لها رسالة تحرش واضحة، وعلى ما أظن قد تلقتها وفهمتها، وإن كانت لا تظهر مبالاتها علنًا.

كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق من النوع المطاط، كما كانت ترتدي بلوزة جرسية فضفاضة سوداء اللون، تحلق رقبتها قلادة ذهبية، تُعشّق أذنيها بأقراط دائرية ذهبية. وكان شعرها الفاحم مسرّحًا فوق كتفيها بتدرج سلس كشلال يرتقي طيات الجسد، أشبه بشعور فرس جامحة.

مع أني لاحظت فتاة أخرى كانت تجلس على بعد خمسة أمتار تقريبًا إلى جانبها الأيسر، تكمن في ساقيها المعرتين فتنة سليطة تشذب النظر، إلا أنني لم أنجذب إليها لعري ساقيها، لانشداه بالي بتلك القطة الشرسة، لتقارب ملامحها من ملامح زوجتي من جهة، ولكراهيتي صفة العري عند النساء من جهة أخرى.

لفتت الأنظار بثيابها اللافتة: تنورة قصيرة بلون عنابي بحواف متهتكة، وقميص أبيض مفتوح الياقة، يكشف جزءًا من بشرتها السمراء التي تحمل جاذبية لا يمكن إنكارها. جلست

وكأنها لا تعبأ بمن حولها، تعرض فتنة ساقيها دون اكتراث، مركبة الساق فوق الساق، تستدرج النظرات من كل زاوية.

لم أكن منجذبًا لهذا النوع من النساء، بل كنت أستنكر هذا التباهي بالجسد، ومع ذلك، وجدتني أتأمل تفاصيلها، مدفوعًا بفضول لا يخلو من التناقض. أردت أن أرى وجهها، لأقارن بين فتنة الجسد وملامح الوجه، لكن شعرها الكثيف المجعد، المصبوغ بالأوكسجين والمكور ككرة السلة، كان يغطي معظم ملامحها، يمنعني من التحري بمفاتنها.

انحرفت بنظري قليلاً، أراقبها بنصف عين، وبالنصف الآخر أتابع القطة الشيرازية الجالسة قبالتي، تلك التي شغلت بالي بجمالها الهادئ وأناقتها التي ذكّرتني بزوجتي. لم يكن الأمر اشتياقًا، بل فضولًا دفعني للمقارنة.

وفجأة، التفتت الفتاة نحو القطة، وكأنها هي الأخرى تبحث عن انعكاس لفتنتها في هذا المكان. لكن حين رأيت وجهها، خف وهج الجسد، وظهر التنافر بين الملامح والجاذبية الجسدية. كان وجهها غير متناسق، أنف بارز، فم مشروط، وعينان صغيرتان زائغتان. بدا لي أن الجسد لا ينسجم مع الرأس، وكأنهما من عالمين مختلفين.

تساءلت: لماذا تحاول امرأة بهذا القبح الظاهري أن تفتن الآخرين بجسدها؟ هل تظن أن الرجل يبحث فقط عن الجسد؟ في رأيي، الرجل يبحث عن الحياء قبل الجمال، وعن القيمة قبل الفتنة.

غضضت الطرف عنها، وعدت أتأمل القطة التي بدت لي نسخة مستنسخة من زوجتي، في العينين، في القوام، في الرشاقة. شعرت براحة نفسية، وكأنني لم أبتعد عن زوجتي قط.

لم يطل انتظارنا في صالة المطار، إذ نقلتنا الحافلة إلى سلم الطائرة. وما إن جلست في مقعدي، حتى رأيتها تتجه نحوي مباشرة، تطلب مني أن أفسح لها المجال لتجلس بجانبي، في المقعد 24 المخصص لها قرب النافذة.

قالت بلهجة عربية مكسّرة:

– صباح الخير.

أدركت أنها ليست عربية الأصل، فرددت:

– صباح النور والسرور... ما شاء الله، تتكلمين العربية؟

– عشت في أبوظبي فترة، وتعلمت القليل. أنا من أصل تركي.

– يا أهلاً وسهلاً، تشرفنا بك. وهل ستعودين إلى أبوظبي؟

– لا، انتهت مهمتي هناك. كنت سكرتيرة في ملحق السفارة التركية، وسأعود إلى أنقرة لأباشر عملي.

في الأجواء، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، بدأت الألفة تنسج خيوطها بيننا. صرنا نتهامس دون كلمات، تتلاقى نظراتنا،

وتتشابك خواطرنا. شعرت بأنفاسها تلوّن أنفاسي، وأن بيننا شيئًا يتشكل دون قصد.

تصفحت مجلة "زهرة الخليج" الموضوعة أمامي، وقرأت لها مقالًا عن الفوضى في سوريا والعراق، وعن تدخلات تركيا في الشمال السوري. دار بيننا نقاش سياسي، رغم صعوبة تعبيرها، لكنها أوضحت رفضها لسياسة بلادها الخارجية، التي تراها سببًا في زعزعة أمن المنطقة. كان الحوار عميقًا، وذو أثر في إذابة الجليد بيننا. شعرت بأنها تقترب من هواجسي، وتنسجم مع أفكاري، وكأنها وجدت فيّ ما كانت تبحث عنه.

بعد ساعة من الطيران، قُدمت لنا وجبة الطعام. جلس الراكب إلى يميني غارقًا في نومه، فشعرت بحرية أكبر في الحديث معها. كانت لحظة هدوء، امتزج فيها دفء الجو بألفة الأرواح، وبدأت الرحلة تأخذ منحى آخر، لا يشبه بدايتها.

عندها استغليت الفرصة ومددت يدي لتلامس يدها، هجست بلسعة حرارة قد أسنت جلدي، سرت في عروقي، لما فيها من رقة وفتنة وجواء، وكأنها كانت لها ذات الرغبة العوسجية في طريقة اللسع. ضرعت لرغبتي مثلما ضرعتُ لفتنتها، لم تسحب يدها من تحت يدي، تركتها تغور بسحر احاسيسها وحرارتها بذات الكيفية، وكأنها هي الأخرى لذعت من تطفلي وتحرقتْ بوسامتي ورجولتي، فانغمست مشاعرها باتون

مشـــاعري حتـــى غـــدت الانفـــاس تشـــرق فـــي زفيرهـــا لدرجـــة الاندماج الذي شاب بيننا..

برضـوخها لرغبتـي كأنهـا رفعـت حـواجز التكلـف والشـك التـي كانـت تمنـع تفـاهتي مـن أن تسـيح علـى كرسـتال مفاتنهـا، بمـداعبتي ذيـل عقربـة مفاتنهـا وثلـب تلـك المحاسـن الفائضـة فـي ثناياهـا؛ اسـترخت بـين هواجسـي فارتقـت مشـاعرها، غـدت بـين يـدي كقطعة اسفنج تمتص أرقي.

لـم تعتـرض علـى سـلوكي السـافر فـي مخاتلتهـا ومحاباتهـا، لـم تنـزعج مـن غيـي فـي مغازلتهـا، فامتـدت يـدي لـتلامس افخاذهـا، تمـادت بغيهـا وعبثهـا لتزحـف فـوق تلـك المفـاتن بشـيء مـن البلـه والهـوس النرجسـي، عصـرتُ راحـة يـدها الترفـة؛ حتـى تقطـرت رقتها كآهات صب ذرفتها انفاسها في صحن وجدي.

مـــا أن تراخـــت؛ حتـــى لانـــتْ لمطاوعـــة عصـــفي، أحمـــرت وجنتاهـــا، بمجســـات الأنوثـــة تحسســـتْ مـــا يجـــول فـــي فكـــري وخـــاطري، بمستشـــعراتها ونظراتهـــا ادركـــت غـــايتي، التمســـتْ حـــرارة انفاســـي.. صـــارت احاسيســـها تخفـــق بصـــدرها، بركـــان يشـــتعل فـــي داخلهـــا، حتـــى خضـــلت وربتـــت مجـــانتي، فأيقظـــت بجوارحهـا الملظـة جـوارحي. لـم أعـد أقـاوم صـبرا، فملـتُ كعاشـق لضـفتها، لتلتصـق عينـي بعينهـا. فقلـت لهـا برقـة المتأمـل والعاشـق المتهور:..

أنت جميلة يا فاتنة، جميلة جدا يا...

سهير.. أنا أسمي سهير.

عاشت الأسامي، أسم جميل مرتبط بالليل والنجوم والقمر والسَحَر والسُهد والهجوع والخيال الدامغ. من يسمع أسمك، يغرق في شجون الوحدة وموج التفكير حتى الذوبان.

آه كم ترتقي شاعريتك الفياضة لإحساسي، شكرا لك لأنك جعلتني أتغنى باسمي.... وأنت بم تدعى؟

أنا أسمي عامر، عامر الطائي...

وأنت يا طائي؛ بوسامتك وجرأتك شعشعت فكري، شكرا لإعجابك بي، ولا أخفيك سرا، أنا مطلقة، تزوجت قبل ستة سنوات، ولم يدم زواجنا سوى سنة فقط، ثم عصفت تيارات الأضداد بخيمتنا، فثارت المشاكل بيننا ثم أزفت بنا إلى وحل العقد، مما اضطررنا إلى الرضوخ لقرار الانفصال... والحمد لله لم يكن بيننا ما يمنع الانفصال، ربما كان عاقرا بذاته، أو أنا عاقرة، حيث لم نجر اختبارات بهذا الشأن....

وهل كنت متزوجة إنسانا؟.....

بدت تضحك هههههه، تبتسم، وهي في غاية الاستغراب من سؤالي لها حتى أنها قالت:....

ماذا تقصد؟ أهو حيوان؟.....

أكيد.. أقصد هل كان يقرأ الأحاسيس والمشاعر بفكر إنسان؟ هل أدرك لغز الأنثى وما فيها من براكين خامدة تحتاج لمعول

رجل لإثارتها؟ هل فهم جدلية العلاقة وحقيقة الارتباط الأزلي ليترك جوهرة ثمينة بحجم الكون تنزف فتنة بين أعين الوحوش الكاسرة. ليترك وردة عبقة أسيرة ضوعها بين العيون النافقة... حقيقة ليس له الحق إطلاقا، وأن تقرحت دمامل المشاعر ونزفت، فالرجل الحقيقي لا يطلق حبيبته، أنه رجل مهزوم، بصير...

هذا نصيب، إلا تأمن بالنصيب؟

بلا... ولكن ... ماذا أقول لعبث الزمن.. حالي لا يختلف عن حالك، لطول لسانها طلقتها، والآن أشعر بشيء من العناء والغرابة، لم تكن غايتي ولا مرامي، جعلتني أعيش الوحدة وهي نائمة إلى جانبي..

كانت قد اغرتني القطة بفتنتها، فقلت يجب أن أساير أهوائها حتى تلين، علني أظفر بها، أنها فعلا جوهرة لا تقدر بثمن، كتلك التي تَغَزّلَ بهنَّ الشعراء، كليلى العامرية وبثينة وفوز وو الخ...

حينها رفعتُ كف يدها ووضعته على فمي لتستشعر بحرارة قبلتي، قبلتها قبلة طويلة، وما أن انتهيت حتى مالت برأسها على كتفي، ثم سحبت يدها الأخرى لتضعها خلف ظهري، لتحيطني بغنج وبشبق وبقوة، وكأنها ودت أن تغرف من فيض مشاعري الجياشة غَرْفَة، فاختاضت بخضب الشوق وعاطفة من الحب والحنان، لا يمكن السيطرة على حركاتها.

في انحداري لضفتها كأني ركنت ذاتي في وهدة أحضان زوجتي، فلم أهجس بغرابة في سلوكي وتصرفي، حتى تخطيت حاجز محيطي وما يدور فيه من لغط، وكأني أرتع في فرشتي وأتقلب على وسادتي. حينها جعلتها في كأسي كقطعة سكر مراغة، أيقظتْ زغب مشاعري لأستشعر بذكوريتي، وتستشعر بأنوثتها. كأنها كانت عطشة لقبلة رجل، لخشونة رجل، وهي تترجم لي معاني أنوثتها.

فما كان مني سوى أن أطبق شفاهي على أسيل خدها، لأطبع عليه قبلة دافئة، اتقدت الوجنتان كجمرة ملتاعة تحت لتعة الشفة. فيما يدي اليسرى كانت قد غارت في ثنايا شعرها، أحنت رأسها نحو شفاهي. مالت نحوي برفق وتودد، أغمضت عينيها لتطبق الشفاه على بعضها، تركتها تغوص في عمق الفتنة تبحث عن اللؤلؤ والمرجان المكنون في عمق بحرها الطامي.

بفيض من القبل عبثتْ بلوحة الوجه كيفما أشاء؛ قضمت ثمرة فتنتها وأنا التنقل بين الشفاه الندية والخد الريان ولحاء العنق. وكأني حين قضمت شفاهها قضمت شفاه زوجتي، للمحبة التي شاقتني إليها. همت بها وهمت بي، أغشت ذاتي بعالم الخيال والنرجسية، بل أني هجست بها قد سقطتْ في مستنقع الخسة والنذالة والخيانة حين هزني الورع أخيرا.

بقدر ما ندمت على فعلتي؛ بقدر ما استلذذت بفتنتها. هجست بذاتي حرة في سماء الوله، كأنها خرجت من جنة التقوى

لتـدخل جنـة الإغـواء والشـهوات والموبقـات والعبـث، شـعرت بالأحاسـيس تتنـاقض فـي داخلـي، صـارت تلهـب زغـب مشـاعري برقتهـا وأنوثتهـا مـن جهـة، واتقـاد فتيـل الثقـة التـي أودعتهـا زوجتي بي من جهة أخرى.

لـم أكـن أهجـس بهـا غريبـة عنـي إلا بعـد أن غرقـت بفيضـها، ومـا كنـت أنغمـس بهـا لـولا فـيض مشـاعري التـي صـورتها لـي زوجتـي. فعـلا تـداخلت المشـاعر فـي مخيلتـي، فحـين قبلتهـا؛ لـم أقبـل سـوى شـفاه زوجتـي، لـم أنعـم سـوى باسـيل خـد زوجتـي. لـذا بـت اتحسـس دفـق الـدم فـي الفـؤاد والقضـيب الـذي ارتقـى قمـة ذكـوريتي؛ حتـى أنـي لـم أدرِ متـى أنتهـى بنـا المطـاف، فلـم أفـق إلا علـى رغبـة منهـا بعـد أن سـحبت شـفتاها مـن فمـي وعـادت لجلسـتها الاعتيادية، شاكرة تحرشي بها...

بقيـتُ علـى تلـك الشـاكلة متـرنح فـي عـالم مـن الرقـة والأنوثـة والخيـال مـدة مـن الـزمن لـن تحسـب بالـدقائق، فيهـا كنـت مغمـض العينـين... بعـدها عـدنا نسـتلذ باحاديـث الأعجـاب والولـه الجانبيـة، وكـأنَّ شـيئا لـم يكـن، كـل ذلـك حصـل قبـل أن يفيـق صـاحبنا مـن نومـه، قبـل أن ينبهنـا قبطـان الطـائرة إلـى ضـرورة ربـط الأحزمـة استعدادا للهبوط بمطار أتاتورك.

حينهـا قالـت لـي وهـي تبتسـم برقـة مـع شـروع الطـائرة فـي الهبوط :..

شـكرا لـك علـى ثنائـك وقبلتـك الحـارة، أشـعرتني بـأنوثتي، كنـت رجلا حقيقيا في تصرفك....

وكنتِ حمامة رائعة، أنت ملهمة، جميلة، فيك حيوية وشبق غريب رائع، يجب أن نتبادل أرقام الهواتف قبل أن نفترق، يجب أن يكون لنا لقاء جدي في إسطنبول لنخطط لمستقبلنا..

وهو كذلك، سنمضي في خروجنا معا، وستكون ضيفي الليلة، ما رأيك؟.

جميل منك هذه الالتفاتة...شكرا لك، أنت فاتنة.

حتى أني لم أدرك لحظة وصولنا التي دامت أكثر من ثلاث ساعات إلا على صوت قائد الطائرة وهو يحثنا على ربط الاحزمة، حينها صارت الطائرة تميل وتدور وتنحرف، تستقرأ بطيرانها مسارها للاستدلال على مدرج الهبوط، فشعرت بهبوط وارتفاع ضغط الدم وانسداد طبلة الأذن من جديد، مثلما شعرت بذلك خلال الصعود.

في خروجنا من الطائرة كنا استقللنا نفس العجلة لصالة ختم الجوازات، وخلال وقوفي في طابور الغرباء القادمون، وقفت إلى جانبي في طابور أخر مخصص لأبناء البلد.

كانت إجراءات أبناء البلد سريعة، بذلك كانت قد أنهتْ ختم جوازها. توقعتها تنتظرني خارج الكابينة لنذهب سوية إلى المدينة، غير أني خاب ظني، حيث ما أن أنهيت ختم جوازي؛ حتى رن هاتفي في جيبي، فإذا بي أجد رقما غريبا، وعندما أجبت بكلمة:...

تفضل.... من معي على الخط؟.

وإذ بصوتها النغام، الناعم، يخرج من الهاتف كطير يرفرف في هواء ظني، جال في خاطري، وهي تهمس في أذني قائلة بصوت ملئه شبق:...

يا وائل!! عليك في المرة القادمة أن لا تجازف مع إمرأة، ولا تكذب عليها، ولا تنسَ أن تأخذ حافظة نقودك من استعلامات المطار، مع السلامة.

حينها تفقدت حافظة نقودي وإذا بي لم أجدها في جيب سترتي، والظاهر حين اندمجت مشاعرنا سلتت حافظتي من جيبي، بعد أن مدت يدها لتحيط بي، فاستولت على ما فيها من نقود، في الوقت الذي به كنت غارقا في أتون رقة الشفاه التي نقلتني لعام الخيال والعبث.

لم أحتار في كيفية معرفة أسمي ورقم هاتفي، حيث أني أحمل في حافظة النقود مبلغ ألف وخمسمائة وسبعون دولارا وبطاقة سيم كارت هاتفي، وهويتي، وصورة زوجتي. لقد كشفت كل أسراي التي حاولت أن أظللها بها..

كانت ساحرة بمعنى الكلمة، سحرتني، توهتني، أربكت حساباتي، ثم تمكنت من سرقت حافظتي، جعلتني أندم على كل ثانية قضيتها معها. كانت أذكى مني، حولت أن استغفلها، لكنها استغفلتني. مبروك عليها المبلغ المسروق، فعلي أن أرعوي.

حسنا فعلتُ بتوزيع المبالغ التي أحملها معي على جيوب ملابسي، وإلا كنت قد أفلست مقابل نزوة كادت أن تودي بي.

قبلة عابرة دفعت ثمنها ألف وخمسمائة وسبعون دولار في لحظة عبث....هههههههههه..صرت أضحك وألوم نفسي الضعيفة على ثمن الضريبة التي دفعتها مقابل تلك النزوة التي أرهقتني.

بعدها حاولت أهاتفها على رقمها الذي اتصلت منه؛ إلا أن محاولاتي ذهبت سدى، كأني كنت أحاول أن أعبث مع المستحيل، أظنه كان رقم طوارئ واستغلال فرص، ما أن أنهت مشوارها به رمته في حاوية النسيان.

لم تكن فتاة عادية، كانت في كل خطوة أخطوها تجاهها كانت تخطو خطوة معاكسة لها، اتجهت إليها فأتجهت نحوي. تبعتني من حيث تبعتها، لعبت معي لعبة القط والفأر.

بمواكبتي الظرف الذي هيئ لنا مستلزمات اللقاء، حسبت ذاتي قط وأنا أقبلها، وإذ أكتشف بأني فأرة بين يديها. اقتصت مني، واقتنصت ما كان يشغل بالها ويلهيها، مثلما اقتنصت ما كان يشغل بالي ويلهيني.

تلك الفتاة جعلتني أعيش في دوامة الشوق، جعلتني أراجع ذاتي لألا تتكرر الحالة معي، جعلتني أضع حدا لشخصيتي أمام نضوج فكري، لأعود صاغرا لوفاء زوجتي.

أخيرا وجدت حافظة النقود كما هي، لم تأخذ منها سوى المبلغ الذي كان فيه، تاركة في جعبتي عصاها لتهطل عليَّ متى أشذ ويشتط انحرافي..

القوقعة

وأنا خارج من المطار باتجاه مرأب العجلات، صادف أن تتواجد قربي تلك الفتاة المعرة، سألتني أن كانت لي دراية بإسطنبول لاصطحابها معي، فقلت لها:....

- تفضلي أية خدمة؟
- ممكن أن أصحبك لمركز المدينة؟ أني لم أزر اسطنبول من قبل.
- لا ضير في ذلك على الرحب والسعة...

لقد وجدت فيها فرصة إذابة صفة الروتين والوحدة، ولأنسى احتيال سهير وما تركته في نفسي من عناء، متأملا أن اسلي ذاتي معها ليلة أو ليلتين؛ حتى أكمل إجراءات رحلتي القامة إلى المجهول..

بصراحة بعد أن طلبت مني ذلك؛ كأنها قد شطبت حالة عقدة سهير من صحيفة فكري، تلك التي شغلت فكري وقوضت رغبتي وسلبت قوتي في ديار الغربة.

مسكت يدها ودلفنا إلى المرأب لنستأجر عجلة لمركز المدينة، وبالذات إلى فندق ميرديا في وسط اسطنبول. حين لمست يدها؛ هجست بخشونة تحفر راحة يدها، كأني لامست يد فلاح الكراب لسعت بشرتها. لكنها لم تحرف فكري عن الغاية التي اتقدت في ذهني وبالذات حين وجدت في ساقيها شعلة براقة من الالق.

خلال الطريق قالت:....

- أني كنت جالسة خلفك بمقعدين في الطائرة.
- لم انتبه على وجودك..... هكذا اجبتها.
- لأنك كنت منشغلا بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تجلس جانبك.
- ربما.
- لمَ لمْ تنتظرك؟..
- لم يكن بيننا موعد مسبق، ثم زوجها في المطار ينتظرها...

إذا كانت تجلس خلفي وشاهدت تفاصيل ما جرى من ود وتهامس بيني وبين تلك الساحرة سهير، تلك التي تأملتها زوجتي وحبيبتي. أي أنها راغبة في تكملة المشهد الذي تخلت عنه سهير على حين غفلة. إذا لابأس في ذلك، رغبتها تطابق رغبتي وأن كانت الذاكرة لازالت مرهقة بفتنة سهير. ربما اصابتها الغيرة، فأتحفت ذاتها لتكمل لعبتها.!

هي لا تختلف عنها من ناحية الجسد، لكن ملامحها لا توائم لطافة جسدها، حتى صوتها تهجس به يغدق بنغمة خشنة، فدرجة صوتها أقرب إلى نغمة الدو والري من نغمة الصول والسي الأنثوية المتبعة في السلم الموسيقي. فيما طولها وبروز صدرها وعجيزها وطراوة الساقين المغنجة تفيض بحيوية أنثى، أنها حقا من هذه الناحية مثيرة تلفت الانتباه. حينها ومن باب المجاملة سألتها:....

- لم أتعرف باسمك ومن أي بلد؟
- أنـا مـريم، أمازيغيـة مـن المغـرب، لـي فتـرة شـهرين أعيش في تركيا... وأنت، ماذا عنك؟
- أنا سعيد، تاجر من الأردن.
- سعيدة بمعرفتك.....
- وأنا أسعد....

عجيـب أمـرك!!!، أنـت سـعيد أم عمـر أم وائـل؟؟؟؟؟؟؟ تتقلـب حسب المواقف.

لالالا قد تكون أمجد أو حامد ومناف.....

وأنـا أسـير معهـا كنـت حـذرا جـدا مـن أن أقـع فريسـة مآربهـا، كنـت حريصـا بـأن أسـحب حقيبتـي وأحمـل الأخـرى الدبلوماسـية بيـدي، فهـي خفيفـة لـم أحملهـا فيهـا شـيء سـوى اوراق خاصـة وكتابين واشيائي الثمينة.

حرصـت عـن مكمـن المـال والمحفظـة التـي فيهـا أسـراري، بحيـث وضـعتها فـي حقيبتـي الدبلوماسـية وأقفلـت عليهـا برقمهـا السـري دون أن أدعهـا تنتبـه. فمـن يـدري مـا ورائهـا، ربمـا لهـا مـآرب سـهير، قـد تكـون ظللتنـي باسـمها وجنسـيتها، هـذه الايـام الموضة جارية على هذا النسق مثلما ضللتها بنفسي.

ومـا هـي سـوى فتـرة نصـف سـاعة كنـا قـد وصـلنا الفنـدق القريـب مـن البوسـفور، منظـر خـلاب، مـريح للنظـر، يشـيع فـي الـنفس بهجـة وسـكينة، اسـتأجرت غرفـة ماسـتر بسـريرين، وفـي الغرفـة

بدأنا نخلع ملابسنا وهي جالسة إلى جانبي، فهاجني الشوق لتلك المفاتن، فامتدت يدي على ساقيها وصدرها، وددت إثارتها بشيء من العبث لأرفع مستوى الشبق لديها ولدي لدرجة الاتقاد.

ثم انحرفت يدي إلى المواضع المحرمة، لتنحدر إلى فض لغز عجيزها ولين شحومها، لتنزلق إلى ثأدة الفخذين، إلى حيث مكمن الاسرار بين الفخذين، وما أن لامست مصباح الغريزة؛ حتى لسعت يدي حرارتها، فارتدت إلي شكيمتي، سحبت يدي بسرعة لأضربه بكفي على ظهره، صارخا بوجهه بكل قوة:....

- قم يا خنيث، هيا أخرج من هنا بسرعة؟.... أأنت ذكر؟ لعنة الله عليك، أنا ناقص قرف....
- لمَ تضربنِ، أنا مثلي، الله خلقني هكذا، لم أكن أنثى ولم أكن ذكرا، أن كنت راغبا سأكون تحت إرادتك...
- ألبس ثيابك وأخرج من هنا يا قذر قبل أن أخبر الشرطة.....

لبس ثيابه على عجالة، ثم خرج من الغرفة وهو يتمتم بكلمات لم أفقها، ردا على صراخي وزعيقي بوجهه، خرج مرتبكا، مهزوزا أشبه بالمسطول وهو يجر حقيبته خلفه.

كيف استطاع أن يغشني ويغش جميع من حوله في المطار، أنه أشبه بالعنكبة التي تجهد في اصطياد ذكورها وحشراتها. كيف؟.. كيف؟..

الظـاهر منـذ أن ألتفـتً يمينـا ركـز فـي نظـره علـيَّ وعلـى سـهير؛ كـان يبحـث عـن رصـيد لـه فـي عيـون الآخـرين، حينهـا شـككت بملامـح وجهـه الخاليـة مـن سـحر الأنوثـة، كانـت وجنتـاه وخـدوده مُعَفـرةٌ بـوافر النقـر، أشـبه بحصـير خـوص عبـث بـه مغـزل الحياكـة، نتيجـة تعرضـه للنتـف والكـوي وعمليـات التجميـل التـي خضع لها.

كمـا أنـه اسـتعار شـعر رأسـه، كـان يرتـدي باروكـة. كـان يحمـل معـه فـي حقيبتـه عـدة باروكـات احتيـاط وأدوات مكيـاج ومسـاحيق تجميـل وغلائـل ملونـة فاضـحة شـفافة للنـوم، وحمـالات صـدر وأنواع من البكيني بألوان طيف الشمس.

لقـد نفـخ الخـدود والشـفاه بمـواد البـوتكس والفلـر، نفـخ الصـدر بمـادة سـليكونية، نتـف شـعر جسـده، رفـع حاجبيـه بعمليـات التـاتو، ملـئ عجيـزه وأفخـاذه بالشـحوم مـن المـواد المسـتعارة ليبـدوا أقـرب للأنثـى مـن الـذكر، ركـب أظـافر مسـتعارة، لقـد عمـل الكثيـر الكثيـر من أجل أن يفتن به رجل.

يـاه....كـم كـان سـخيفا، كـم خسـر مـن النقـود والقيمـة والأخـلاق، خسـر الأهـل والمجتمـع وأشـياء كثيـرة، فعـل كـل شـيء مـن أجـل شيء مغروس في باله، من أجل أن.....أنه تافه - مريض.

تلـك العمليـات كلفتـه حياتـه وجيبـه ومسـتقبله، وفـي الأخيـر لـم يجد فسحة عيش كريمة في بلاد المسلمين.....

يـا تـرى؛ هـل شـغل فكـره بمـا هـو أبعـد مـن جسـده؟ هـل تخيـل نفســه بعــد أن تمضـــي ســـنوات الشـــباب كيـــف ســـيكون شـــكله ومصيره؟؟ كيف سيبدو في سن الستين والسبعين؟

الفندق

على الرغم من أن تلك الفتاة التي أدعت أسمها سهير كانت قد أخذت قدرها وفتنتها وما في جيبي مع نزولنا من الطائرة، إلا أنها تركت في ذاكرتي وشم فتنتها وفي شفتيَّ لسعة قبلتها وفي ضميري عصا التأنيب توهطني بها متى ما أنحرف سلوكي عن الخط العام، رسخت في ذاكرتي ذكرى لطيفة تراقب هوسي وارهاصاتي، تتحكم بقيمي ومقدراتي متى ما مالت استقامتي عن استقامة الطريق.

أهم ما تركت في ذاتي هو عصا تأنيب الضمير وحرارة تلك القبلة السليطة التي لصقت على شفاهي، لتبطش بي بين الحين والآخر من جهة وتحفزني نحو الموبقات من جهة أخرى، إذا ما زاغت عيني خارج إطار قواعد الشرع والإنسانية، إذا ما تجاوزت حدود الأدب واللياقة وحواجز العلاقة الزوجية...

بصريح العبارة؛ جعلتني أرعوي من سلوكيات الطيش والعبث والتخوير التي أحيانا أجد فيها ضالتي نتيجة الوحدة وفقداني السيطرة على انفعالات النفسية، نتيجة تكرار المواقف المغرية في حياتي دون أن أسعى خلفها. ربما هناك خلل في ميزان الفكر والعاطفة والشخصية، لغز ما يقحمني في معتركات المواقف المحرجة والمخزية دون إرادة، شيء ما من هذا القبيل غائر في تكوين شخصيتي. شكل عام مضن، سحري، متركب من الغموض لا أدركه، يكون فوق طاقتي ودون إرادتي..

تلك هي العقدة التي أعاني منها.

على أية حال دخلت إسطنبول، استأجرت غرفة في فندق مريديا في منطقة سلطان أحمد كون المنطقة منطقة سكنية قريبة عن البحر، إضافة إلى وجود مسجد السلطان أحمد ومتحف آيا صوفيا بجواره. أنها منطقة شعبية ومزدحمة بالأسواق والأماكن السياحية، يجاورها سوق كراند بازار القديم في بيازت على بعد كيلومتر، ومرتع حديقة جولهانة المطلة على خليج البسفور من الجهة الثانية.

استحممت، كشطت عن جسدي عناء السفر وغثاثة تلك العرة، ارتديت بجامة كنت قد جلبتها معي، ثم تمددت على الفرشة الوثيرة لأريح جسدي فأخذتني غفوة ساعة زمن. بعدها ارتديت ملابسي وخرجت أستطلع الأماكن القريبة في جولة تفقدية قصيرة لأسواقها العامرة، ثم اتجهت لحديقة جلهانة لأجلس في مقاهيها المطلة على بحر البسفور من مرتفع شاخص يغض بالفتنة والسحر. بقيت حتى فترة العشاء لسحر المنظر. هكذا كنت قد قضيت الفترة المسائية وأنا أتسكع وحيدا في الشوارع آملا أن التقي بتلك الحية الرقطاء المسماة سهير في مكان ما. عدت إلى الفندق مرهقا بعد فترة العشاء، فنمت ولم أصحى إلا بعد العاشرة صباحا.

حين ودعت زوجتي كانت قد تركت في ذهني عهد الضمير، لتبطش بي بين الحين والآخر، متى ما زاغت عيني خارج أطر وقواعد الشرع والإنسانية، وخاصة في حالة الوحدة قد ينزلق

الفرد بعيدا عن حواجز العلاقة الزوجية. تلك العصا جعلتني أرعوي من سلوكيات العبث والتخوير التي أحيانا أتعشق بها بمحض الصِدف، لفقداني السيطرة على انفعالاتي النفسية، نتيجة تكرار المواقف المغرية في حياتي مثلما حدثت مع سهير. ربما هناك خلل في ميزان الفكر والعاطفة، ربما لغز ما يقحمني في معترك تلك المواقف المخزية، شيء من الإيهام والتشوش واللبس لا أستطيع أن أهرب منه.

في الفندق كانت عاملة النظافة تأتي في كل صباح من بعد العاشرة، لتبدل الشراشف والفراش، تنظف الغرفة وتمسح الغبرة عن النوافذ، كما تملأ قوارير الماء في الثلاجة إذا ما فضيت...الخ من خدمة الزبائن، تقضي في كل الغرفة فترة نصف ساعة تقريبا، ذلك هو ديدن عملها الروتيني المناط لها.

في اليوم الأول من سكني بالفندق كنتُ قد عطفت عليها بخمسة دولارات كبقشيش من باب الشفقة، صارت هذه العاملة كل يوم تأتي لتعتني بالغرفة أكثر من الطبيعي، ففي المرة الأولى كانت ترتدي بجامة رصاصية أشبه بتلك التي يرتديها عمال النظافة من الرجل، فلم تشغل بالي مفاتن جسدها أبدا.. في اليوم التالي صارت ترتدي تنورة سوداء قصيرة جدا فوق الركبة، على الرغم من تجاوزها الأربعين من العمر؛ كانت ذات انيار واضحة، محتفظة بحيويتها وألقها؛ حتى أني حين صرت أدقق بسيقانها وخورانها لما تحمله من فتنة وسحر وأفخاذ ثأدة بضة، وبالذات حين تحني جسدها أمامي بحجة التنظيف وهي تمسح الغبرة عن الاثاث والمرآة والتي لا غبرة

فيها ولا وسخ؛ صارت تشد انتباهي. جعلتني أنبهر بسيقانها، شدت نظري جاذبية ثأدة الأفخاذ، كما لسحبة سيقانها فتنة أخاذة أذا ما أخذنا في الحسبان طولها الممشوق، كانت تقاربني في الطول، وذات رشاقة قل نظيرها قياسا المرأة.

كنت أهجس بها تحمل في عجيزها فتنة مزهوة، كحسان عارضات الأزياء؛ خاصة حين تتبختر في مشييها مع انعكاس لون السواد على ألواح ساقيها البضة كمرآة عاكسة، فترهف الروح الملهمة بالوصف، فالجاذبية المنبثقة تبرق كلمعة الكريستال حين تغازلها الشمس فتنعكس أنوارها في الحدق.

لفتنة فخذيها الثأدة، صرت ألتمس السحر المغنج بهنَّ، جعلتني أتوه بأسرار الرغبة الجامحة التي انتدبت في مكمنها. جعلتني أنحدر في فكري نحو هوة المتعة، كأني نسيت عصا سهير وعهد الضمير التي تركتها زوجتي في كنفي، تلك التي أجلد بها الذات متى ما انحرفتْ.

أخذني الخيال بعيدا إلى عمق الصورة، إلى اللون والريشة السليطة، إلى النغمة الهادئة في ذلك العزف، مع ذوائب مغريات حركاتها، حتى أني نسيت ذاتي في هذه المواقف الشرسة فتخيلتها زوجتي، انحدرتُ سريعا إلى عمق المشهد الحي، لأندمج في حواراته كممثل بارع. صرت أبحث عن لغز الفتن، وما تحت التنورة من لؤلؤ وياقوت. بت اتأمل صدفيتها وأنا أسبح في تلك الموجة لعمقها الداني دون خجل.

هكذا صرت أغور في بحر الخيال، التلمس خط العجب من الشفق المنحدر فوق ذلك الجسد، ففي الوقت الذي كانت تطيل البقاء في الغرفة بقصد واضح، كان الخيال يسرح بي فوق مروج مفاتن الجسد.

أصبحت في وضع قلق لا أحسد عليه، لن أستطيع مقاومة عناكب الشهوة المثارة فوق شهد تكور عجيزها، بحيث دار المشهد في خلدي ككامرة متحركة ترصد هواجسي ومشاعري والتشنجات التي صارت ترتفع وتيرها. لقد توسعت دائرة الوله في ذاكرتي، لتغطي مساحة الفكر والرغبة الجامحة في قلبي. سيطرت على أهوائي وعقلي، جردتني من إرادتي، بت أشعر بالعجز حيال الصبر المر.

بأسلوبها الوقح حركت في داخلي سلوك الولدنة والمشاكسة. صرت أُقْبِلُ على تتبع الصورة، متبعا تلك الفتنة من الجاذبية بشيء من الرعونة، زاغ الفكر في بحر الخيال، رحت أُقَبّلُ تلك الساقين وأنحدر بها نحو واحة العبث، حتى تخطت ذاتي حد الشك. أضحت الصورة أكثر وضوحا وإشراقة لي مما تخيلت، زال غواش العث عن أعياني. بت أنظر إلى قدرية وجودي من زاوية الفرصة المتاحة، متبعا سر اللمعة في فج الغواية؛ حتى التمست مشاعري جمرة الوله القابعة في أستها، حيث أتقدت نارا حين لامستها راحة يديَّ.

انحدرتُ إلى وهدة الإغواء، إلى لحظة الأخلاء والتجاوز والتحاور، كانت لحظة نسيان واستدلال وانحلال وتصالح مع

الـنفس الأمـارة بالسـوء، اختلجـت الفكـر بعريهـا؛ حتـى أعـرت قـدري وأخلاقـي ودمـاثتي عـن يقينـي، بحيـث بتلـك اللحظـة لـم أعـد أرى شـيئا، سـوى مفـاتن حبيبتـي متمثلـة بـين راحـة يـديَّ، حسـبتها زوجتي، وكأنها حضرت لتطفئ نار الشبق الثائرة بأعماقي.

كانـت لحظـة غثيـان ونسـيان واسـتهجان فـي نفـس الوقـت، فيهـا تركـت يـديَّ تبحـث عـن الحمامـة النائمـة فـي أيكهـا، لـم أدرك حـالي إلا ويـدي تمتـد سـرا إلـى سـرائرها، لـتلامس نعومـة البشـرة الملـداء فـي السـاق والعجيـز، جسـدا خضـلا بشـيء مـن الرعونـة والشـبق، كانـت يـدي قـد امتـدت برهافـة إحساسـي، لتلسـع الرغبـة الجامحـة المدفونة في خاطري وذلك حين اقتربت من السرير..

مـع ملامسـة يـدي طـراوة عجيزهـا؛ التفتـت نحـوي وفـي وجههـا ابتسـامة صـفراء تـنم عـن خجـل أصـاب شخصـها، وكأنهـا رقـت لخشـونة يـدي ومـداعبتها، كـأني أثنيـت علـى تلـك الفتنـة التـي أغـوتني بهـا فأحسـت بالنشـوة والسـرور، لتنفـذ حرارتهـا لأعمـاقي كحقن تخدير تغز اوصالي..

مـا أن لمسـت ذهـولي بهـا؛ حتـى عضـت علـى العنـاب بـالبرد وهـي تنظـر إلـى بعـين مـومس زائغـة، وبغـنج عطفـة غانيـة، تنظـر إلـى بمـا وصـلت إليـه الـروح والشـهوة مـن انحـدار شـطط استشـط في أوجار الرغبة، ليدك عصب الوتد النابض بين ساقيَّ

وأنـا أنظـر إليهـا، هجسـت قـد أوطـف طيـف زوجتـي بملامـح وجههـا، صـعقتُ مـن المشـهد وهـي تنظـر إلـيَّ بعـين العجـب،

شـعرت بعصـا الضـمير أَوْهَطَـت علـى جسـدي، أعـادتني لعـالمي الجميل، لواقعي السليم.

ياه.... ترى أين ذهبت في سفهي؟..... أين انحدرت؟...

حينهـا نزعـت الغشـاوة عـن حـدقي، بعـد رعونـة أودت بـي إلـى وهـدة الخسـة، وأن لـم تـدم سـوى لحظـات؛ إلا أنهـا جزلـت عنـي قيـافتي، فلـم أعـد لـذاتي الحقيقيـة إلا بعـد أن لسـعتني عصـا تأنيـب الضـمير. هجسـت بهـا قـد شـعرت بغبطـة غطـت رمـق عينيهـا، أخـذتها بعيـدا، أشـعرتها بقيمـة نفسـها وبحيويـة مفاتنهـا، أشـعرتها بانها لازلت فيها فتنة تفتن بها الشباب.

ربما....

أخـذتني الحيـرة بهـا مثلمـا احتـارت هـي بسـلوكي. لكنهـا كانـت لطيفـة معـي، بحيـث لـم تغضـب، ولـم ترتعـب، ربمـا الخمسـة دولارات جعلتهـا تكـون لطيفـة معـي، ربمـا شـغفها بـي هـو الـذي جعلهـا ترتـدي تنـورة قصـيرة لتغـويني بمفـاتن جسـدها. ربمـا شعشـعت رغبتهـا بسـلطان الجـنس، فـودت أن تجـدد حيويتهـا معـي، ربمـا هـذا هـو كارهـا وأسـلوبها مـع زبـائن الفنـدق، وبالـذات مع فئة الشباب من الغرباء...

ربما... ربما... وربما...

ربمـا دفعهـا الفقـر إلـى ذلـك، للحصـول علـى مـا تسـتطيع جمعـه مـن مـال تسـد بـه رمـق العـيش، تسـد ثغـرة مـن ثغـرات الفاقـة الـدائرة في المجتمع التركي.

كل تلك الأمور جائزة.... لكنها فعلا شغلتني بلطف سيقانها، حتى أني نسيت ذاتي عندما امتدت يدي لعجيزها، نسيت أنها امرأة عاملة. كانت لحظة غثيان وصبابة في غير محلها..

تلك حالة لا أعرف تفسيرا لها، ربما هي حالة مرضية أو شيزوفرنية تمج الخيال بالحقيقة، فتدخل في صلب الاحساس والمشاعر، فتنقل الفرد من حالة الوجود لحالة التيه، لغياب تام للإدراك. صار هذا التكرار يزعجني، يؤرقني، وفي نفس الوقت يلهيني، ينسيني ضغوطات الزمن، يسبب لي حالة ارباك باستمرار.

ربما الوحدة دفعتني الى تقمص الحالة، ربما عقد الحياة وزحمة الأفكار حثت سفهي إلى التحرر من القيود الدينية والأخلاقية لتتمسك بذلك الانحدار. ربما التفكير في حيثيات المستقبل المجهول جزل عقلي، أو ضعف الإيمان ونقض الدين الذي أتصف به.. كل ذاك تجمع على ذهني كهوام الحشرات في الطريق، أنستني حقيقة ذاتي وقدري ومكانتي..

إذا جنح الفكر، لينحرف إلى واطئة السفاح، إلى لحظة التسامي والانصهار بتلك الفتنة المكورة في كفلها، كأنَّ الأمر قد فرض عليَّ، بحيث صار خارج مساحة العقل والتفكير والإرادة، حالة تقيدت بها بقيد الغريزة.

كأنَّ الذي دفعني إلى تلك الحالة من اللمم؛ هو ذلك الفراغ الذي وطأ عالمي ووصم فكري بالوحدة والجنون، بحيث صار يرفع من غيي ويلوث ذهني بمعطيات السفه في محيطي.

منذ لحظة فراق زوجتي أصبح فكري منشغلا بتفاهات ما يحاط به، أضحت الحالة أشبه بحقنة التخدير، تغز الذات بإبر مع كل جميلة تصادفني، حتى جعلتني لا أميز بين الطّيب والطَيب من جمال عالم الأنوثة.

ربما أقنع نفسي بتلك المبررات، ولكن فعلا أني لم أستطع مقاومة المغريات الدائرة حولي، حتى أني صرت في حالة غريبة أهجس بذاتي ضعيفة جدا، مراهقة، مغرورة، مريضة. ربما أنا فعلا مريض ولا أشعر بذلك، بحيث بت أشك بطبيعة سلوكي الهمجي. صار التنافس على أشده بين الأنا العاقلة والذات المراهقة في تقييم سلوكي.

لحظة نسيان كانت قد نقلتني من حالة سكون تام لعالم رجاء والألفة، حالة افتقدتْ بها رفيف صبري، بقيت مهووس بتلك المفاتن وأنا أشعر ذاتي لائذة بحضن زوجتي...

بطبيعة الحال أنا أعشق زوجتي، أعشق كل خلية في جسدها، أعشق الضحكة والنكتة والهمسة والرقة ولون البشرة، وتفاصيل الجسد والفتنة المسورة.. لذا انغمست في أست تلك العاملة متخيلا أنها زوجتي.

هكذا خيل إليَّ المشهد وهكذا رأيتها، مثلما غررت بسهير...

على أية حال حين التفتت إلي قالت:...

- يا سيدي أن كنت ترغب بذلك؛ عليك أن تدفع لي خمسون دولار، حينها سأكون تحت إرادتك.

حينها شعرت بعصا الضمير توهط جسدي، تركت أثر سخطها على القلب والذهن؛ كشت الشهوة وغار القضيب في مخبئه. بت أنظر لوجه تلك العاملة بشيء من الخجل وتأنيب الضمير، كأني أصبت بفزع وخوف، جعلت أمري بيد الأنا العاقلة لأعالج تقرحات السخف التي طفحت في فكري، والتي تركت ملامح الوجه تتأسف لها عن كل بائنة.... حينها قلت لها وفي وجهي ابتسامة صفراء تنم عن خجل واضح:....

- أسف يا سيدتي نسيت نفسي، هذه الأعمال لا تليق بي وليست من شيمي، شكرا لك.

حينها استخرجت من محفظتي عشرة دولارات ووضعتها في يدها وأنا أعتذر منها، صارت تنظر لي بحسرة، لأني رفضت عرضها بعد أن شهدت يدي على رغبتي الجامحة بها.

بعد خروجها بقليل، ارتفعت مآذن المساجد وهي تكبر في نداءاتها، تدعو المؤمنين إلى للصلاة، لحظة إيمانية جالت في الفضاء، وكرت على وتين القلب، لتغسل النفس من آثام الشيطان، لأعامل الناس بالتي هي أحسن، أنها لحظة ورع، جعلتني أكف عن غيي، حفزتني إلى الولوج في أجواء التوبة، إلى رحمته وجنته، لأهيئ ذاتي للصلاة..

حينها اتجهت للمسجد لأضع ذاتي بيد الله وأنا أشعر بانكسار وضعف أمامه، كمن لزم الصمت لمشواره القادم.

طرقت مسامعي أصوات آذان الظهر المنبثقة من مآذن مساجد إسطنبول العديدة بلحظة واحدة، تلك الغائرة في بطون وقصبات اسطنبول، تسعى إلى حث المسلمين التوجه لغرفِ الإيمان والهدايا، لغسل النفوس من المآثم والتروي في أمور الدنيا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعاملة الناس بالتي هي أحسن.

كانتْ قد خرجت من الغرفة بمجرد أن وضعتُ النقود في يدها، خرجتْ وخرج خلفها يتقهقر شيطاني، هاربا، لاذعا مع ارتفاع صوت الآذان. حينها اتجهت للمسجد لأكفر عن ذنبي وأغسل ذاتي بنور الإيمان والتوبة.

مسجد السلطان أحمد مسجد واسع وكبير، هو مزار من مزارات الشرف لدى المسلمين، صليت به صلاة الظهر مع الجماعة، أحسست بقيمة نفسي وهي بين يدي الرحمن.

لا أدري بماذا اسمي ذلك؟ أحسست بذاتي غارقة بمتاهة العقد، الانفلاقيات الكونية التي تحدث في أعماقي تسوقني إلى الشذوذ الفكري، صرت أقرأ فصول شخصيتي العبثية في عيون الغير. لا أعرف وصفا جديرا لها، لذا بت أجرد تلك الحالة عن الأصل الذي يركبني، صارت الذات الداخلية تماحك ذاتي الخارجية بالهفوات التي تتبعها، كنت أحمد الله بأني لم أكن في موضع يشهرني، وإلا لكانت الفضائح تهز كياني أمام الأهل والمعارف والأصدقاء.

بعد الصلاة رفعت يدي إلى الله ادعوه أن يوفقني في مهمتي ويحرزني من الموبقات والهفوات، وأن يزح عن كاهلي سكة الهم والغم، ويشفع لي ويعفو ويُكَفّرْ عن سيئاتي وخطاياي، أن يُريني الرفعة والسؤدد ويحفظ كرامتي وزوجتي وأطفالي من كل مكروه ونغصة، وأن يلبسني رداء الإيمان والتوبة.

بعدها تجولت في أروقة المسجد التاريخي والذي بناه السلطان العثماني أحمد الأول في 1609 – 1616، ثم اتجهت لمتحف أيا صوفيا المجاور له والذي يحتوي على مقتنيات الإسلام ما يخص الرسول وآل البيت والصحابة سلام الله عليهم أجمعين.

.

العقربة

مـن خـلال تلـك الأحـداث التـي مـررت بهـا فـي تركيـا واليونـان شـعرت بـأن الشـيطان كـان قـد وضـع غـره فـي صـحني، صـار يلاحقنـي، يوسـوس لـي، يفـرش بسـاط الفـرص أمـامي لانجـراف وانحـراف عـن المسـلك العـام، يـدعوني إلـى التـبجح خلـف العلـل، يـدفعني إلـى الانـزلاق فـي وهـدة الموبقـات التـي كلمـا حاولـت أن اتحاشاها أجد نفسي في بؤرتها دون إرادة.

فـي كـل أقـداري وفـي كـل بقعـة مـن كيـاني وفـي كـل نقطـة مـن ظنـي وتوقعـاتي أجـد شاخصـا يتحـرك أمـامي، يحـرك لـي ذيـل الفتنـة فيغرينـي ويغيرنـي، يحرضـني علـى الولـوج فـي معتـرك الولـه والتحـرش. نفسـي اعرفهـا، هيفـاء، أمـارة بالسـوء، لا تصـبر علـى سـقم ولا تحتمـل هـذيان وجـد، تقـف مبهـورة أمـام الأنوثـة، حيـث تجـد فـي شـمس الأنوثـة دفئـا ينتشـلها مـن تيههـا وشـجونها، لـذا أراهـا عاصـفة مهتاجـة أمـام كـل انثـى وبحالـة هذيان وتحول..

حالـة مريضـة تلـوك صـفاء ظنـي وفكـري برغـاء فـرص الفحـش والمعصـية، أي أنـي قـد أكـون فـي طـور التحـدي أو طـور التجـارب للـذات الأبيـة دون إرادتـي، لـذا أهجـس بنفسـي مريضـا منـذ فراقـي زوجتـي، وكـأني واقـع تحـت ضـغط تـأثير برج حبيبتي أو برج النساء.

فعلا صرت لا أشعر بذاتي إلا وأنا منجر خلف ضعفي وهواني مع طيف زوجتي لا يفارق مخيلتي، بحيث أين ما أذهب أجد قوة مغناطيسية أو سحرية تتمثل لي بصورة زوجتي، وكأن هذا السخط من سخرية القدر تتلاعب بأعصابي، مسبوكة بقدر ما أو بسحر فتاة تجذبني لمفاتنها.

سحر ما أهجس به كاللمعة يتموج فوق بشرة أجساد النساء، يتلون بلغز صفاتهن، حالة قدرية، تسلط الضوء على ضعفي فأشعر بمغناطيسية الأنثى تجذب كل هواجسي، تلعب بأعصابي، تلوك ذاتي بوحل من الشغف والشغب، حتى أجد ذاتي مستسلمة لسلطان الأنوثة بمحض إرادتها؛ وكأن القرار قد أجتث إرادتي، أو إرادتي انقادت خلف الفتن كطفل لا تفقه شيء، لذا صارت تهفو خلف كل جميلة دون إرادة ووجل، فأتوه بفكري وعقلي بين اطباقهن بحثا عن اللذة والسعادة.

حين أجد نفسي وحيدة كنت أتبعهن برجاء، رغبة بمقارنتهن بما تملك زوجتي من سحر وفتنة. ولن أدرك ذاتي إلا حين أشعر بلسعة عصا الضمير توهط ذاتي، تتقصد زلتي.

كثيرة هي الأحيان التي أجد بها ذاتي مسيرة في خياراتها وليست مخيرة، بت أخاف على نفسي من شرورها، من أن تزج بي في بئر العقد والمطبات القدر التي ليس لي طائل بها.

لرهافة روحي بت أخاف تجني الفتيات اللاتي أصادفهن في الطرق، لذا حين رجعت للفندق، بعد أن عشت فصلا دراميا مع كرستينا وهي تتسكع في شوارع أثينا، بعد أن أولغها السكر في عالم الغي والعبث، تفاجأت بأخرى أشد فتنة منها تجلس في باحة الفندق، وكأنها على موعد معي قبل أن أشد الرحال إلى السويد. بقيت في أثنا خمسة أيام، يوم السادس عشر من أكتوبر 2017 كان موعد رحلتي إلى السويد.

ما أن دخلت باحة الفندق وجدت فتاة ثلاثينية غاية في الرقة والجمال تجلس في مقدمة الباحة على كرسيي منفرد وعيناها شاردتان نحو مدخله، ترتدي بلوزة شفافة سوداء نصف كم، تحلق رقبتها سلسلة ذهبية معقودة بصليب فضي صغير يفتن صدرها البض، بحيث يرفأ في وادي النهدين ببروز واضح كواحة في صحراء صدرها، خاصة مع ضغط رف حمالة الصدر من الجانبين والأسفل تبدو التضاريس ككثبان رمل تحيط بها.

لسحرها؛ هجست للنهدين ألسن تحاكي شبق العين بجدل فاضح، تقاسمني الرواء بذلك الحور، تميد الحوار بين العين والنهد بلغة الصمت، غررت بها كمراهق يتأمل فتنة وأنوثة وبالذات في تكور الحلمتين وطراوة الهضبتين.

كانت الفتاة مغنوجة، ترفأ بحسن ملائكي، شفافة، تنتظر في مدخل الفندق وكأنها تجلس على جمر من الصبر، تتأمل قدوم من ينتشلها من مأزق. وجدتها تود التشبث بعنق الداخل

للفندق، ما أن دخلت للفندق لفتت نظري؛ حتى هجست بها لسعتني بنظرتها، مع تخطي عتبة المدخل انجذبت لها، كعقربة أفرزت سم فتنتها بالجسد، لما فيها من سحر وجاذبية.

شد نظري الصليب، خلتُ عيناي طيرا هفا إلى واحة الصدر وهن يمسحن فضاء الفتنة بشبق مذل أخرجني من حقيقة كياني وشخصيتي كعابث لا يبالي بالقدر. تمنيت أن تكون روحي ذاك الصليب لما لتلكم الأثداء من تفلك ولدانة. بحيث ما أن دخلت الفندق؛ حتى استقطبت نظراتي ملامحها الأخاذة، المدهشة، جعلتني اتحرى عن لمعة الصليب وبهجة الصدر، عن فيض السحر المحيط به والمنعكس منه.... كأنه عكس الفتنة المشاعة في الصدر إلى عيني، فأرسل لي إشارة استغاثة، لأنتشي ضوء ذلك السحر قبل أن ينوء السحر لمجانة للقدر، قبل أن تجعلني أميس إلى تلك النهود بحرشة غيٍ من الفكر والقلب تفقدني صوابي.

من خلال جلستها على كرسيها، علمت بأنها ليست على ما يرام، كمن يكمن في صرتها قلق ما، هجست بها مهزوزة، حائرة، كفراشة تحاول تجنب ريح يستفزها قبل أن تستقر على الوتد، تخفق بنظراتها بعيدا عن الأجواء، سر ما شاق ظرفها جعلها تستغيث بمن يدخل الفندق.

لانبهاري بها هجست بها وكأنها تحمل بعطفة صدرها قطتين من الفراء الفضية، تداعبان قميصها اللدن برهاوة.

بـذاتي وددت مداعبـة تلكـم القطتـين بـالفطرة، لمـا فـيهن مـن جاذبية.

كانـت الفتـاة منعزلـة بوحـدتها، كأنهـا تنتظـر رجـاء مـا، شـخص مـا. لـذا حـين دخلـت الباحـة؛ التفتـت علـيَّ راجيـة أن أجـل عنهـا ذلك العناء والعبث، أن أجيبها عن سؤالها، حيث قالت:...

- ممكـن أسـتخدم هاتفـك للحظـة، كـأنَّ هـاتفي قـد فـض شحنه.

اسـتجبت لهـا بسـرور وعينـي منصـبتان علـى طـراوة الثـديين، فقلت لها والرغبة جامحة في ملاطفتها:....

- تفضلي يا سيدتي....

أخـذت الهـاتف وفـي ثغرهـا ازفـت ابتسـامة لطيفـة، صـارت تطـرق رقمـا مـا مسـجلا علـى ورقـة فـي حافظتهـا، فـي محاولتهـا المكـررة لـم تجـد اسـتجابة آنيـة، كـأنَّ الهـاتف المـراد حثـه يعلـن عـن ذاتـه خـارج نطـاق الخدمـة الشـبكية... حينهـا كنـت أنظـر بـنهم لتـدفق مفـاتن صـدرها، تلـك التـي لـم تـزغ حـدقي عـن نضارتها.

بقيـتُ شاخصـا كالوتـد، أعـاين علـى فـراء القطـط المخفيـة تحـت حمالـة الصـدر، طافـت بأروقـة الفـتن بشـيء مـن الجـرأة وعـدم المبـالاة، شـعرت بـأني دغـدغت زغـب مشـاعرها، وكأنهـا انتبهـت للحظـة علـى فجـاجتي واستأنسـت ببريـق مفاتنهـا، لكنهـا

بقيت على رصيدها ووضعيتها دون مبالاة، لم تغير من شكل جلستها، هكذا تراءت لي كحمامة تخفق بسماء الوله.

لا أدري أن كانت قد أدركت ما كان يجول في خاطري أم لا؟

لا أدري أن كانت تعمدتْ إبراز مفاتن صدرها أم لا؟

لا أدري أن كانت بذاتها تهجس راحة بسلوكي وعبثي أم لا..

لكنها تصنعت اللامبالاة.....

وبعد تكرار محاولتها أعادت إليَّ الهاتف دون أن تنجح محاولاتها، حينها قالت لي بلكنة إنجليزية:..

- شكرا.... الهاتف لا يشبك.
- هل من خدمة ممكن أن أسديها أليك...
- تأخرت عن المطار وسائق التكسي الذي تواعدت معه لا يرد، وأني أخاف أن تقلع طائرتي.
- متى موعد طيرانك؟
- بعد ساعتين.
- جميل جدا؛ أنا خلال عشرة دقائق أغادر الفندق للمطار، على قدر تهيئة حقيبتي، أن كانت لك رغبة بمرافقتي أكون سعيدا بذلك.
- عظيم، شكرا لك، إذا أنا بانتظارك..
- وهو كذلك.

تركتهـا وصـعدت لغرفتـي لأضـب حقيبتـي، وقلبـي المسـكين خـرج عـن طـوره، مـا عـاد يبطـل اضـطرابه، ظـل فـي سـره يخفق بفتنـة تلـك العقربـة، يسـرد جنونـه لهـا كآلـة المـورس، وهـو يطرق أذنيَّ بسرعة نبضاته الخلجة، مستفسرا:....

تـرى لِـمَ لـمْ تسـتعن بأحـد أفـراد الفنـدق وهـؤلاء الزبـائن مـن الـزوار قبـل أن أدخـل للفنـدق؟ ؟ هـل فتنـت بـي، أم القـدر قـادني إليها؟....

سـؤال صـار يغـز فكـري، يحـرف ذهنـي، يـدور فـي رأسـي كطائر الصقر، يزرع الشك في قلبي وأنا أضب حقيبتي.

فـي الحقيقـة لـم أنتبـه علـى مفـاتن وجههـا إلا بعـد أن عجـزت عـن مهاتفـة سـائق التكسـي، حينهـا رفعـت رأسـها وشـكرتني وفـي حـدقات عينيهـا نظـرة رجـاء لـم أفهـم لغزهـا فـي حينـه، لكنـي كنـت سـارحا فـي لطافـة تكـور عنـاجر النهـدين، تلكـم اللاتـي شـغلنني عـن عـالمي، نقلننـي إلـى حيـث الصـمت والولـه. لخمرية بشرتها الملساء و بريق عينيها السوداء.

لـم أخفـض نظراتـي عنهـا قـط، ولـم أخجـل منهـا قيـد شـعرة، لقـد ركـب الجنـون ذهنـي، وكـأني صـرت لا أهـتم لمـا سـيبدو منهـا أو سـيدور بيننـا، وخاصـة بـذاتي كنـت جانحـا فـي فكـري خلـف المجازفـة، لحظـة كنـت بهـا زاحـف إلـى المطـار... لحظـة هجسـت بهـا ذاتـي بليـدة، غيـر مهـتم لمـا سـيجري وسـيؤول. واقـف أمامهـا كشـاخص سـليط لا يهتـز، أبغـي أن أسـمع منهـا

صوت القدر، وكأني اكتسبت الجرأة من (النايت كلاب)، من ليلة أمس التي شحمت فكري بالغي وعدم المبالاة.

ما أن شكرتني حتى انتبهتُ على مفاتن وجها، تلكم المفاتن التي أوحت إليَّ بعذوبة سحر الشرق، وصفت لي ربيع المفاتن، وجدت في سواد عينيها المسحوبتان ألق واضح. وفي شعرها الفاحم أناقة تواكب قزحية العينين. لأنفها طلة جبل شامخ على الوجنتين والشفتين لأناقة قوامه، يضفي كاريزما جذابة على مساحة الوجه، يوحي للناظر بشيء من الأبهة والكبرياء. كما تعنى بفم مؤطر بشفة واسعة، مغنجة بطفح قرمزي داكن ملؤها حيوية. خيلت إليَّ من دول البحر المتوسط.

وحين وضبت حقيبتي ونزلت للصالة، إذ بها تنظر إليَّ نظرة توسم، يكتنفها شوق ورجاء. لمست في حدقات عينيها تعابير وله شيطانية مشظة، تتقصد قيافتي وشبابي. هالة غريبة من الجاذبية وشحت قامتها، وهي تقف بجوار كرسيها، تشعر بها كأفروديت أثنا، تضفي على شخصها جاذبية ساحرة، لرهافتها وجميل قوامها الرشيق..

لاحظت ذلك وجعلت ذاتي غير منتبهة، أغشيت مشاعري تماما.

قبل أن أدخل الفندق كنتُ قد اتفقتُ مع سائق تكسي أن ينتظرني أمام الفندق ليقللني لمطار أثنا، كانت لوازمي الشخصية قد جمعتها مسبقا في حقيبة صغيرة سوداء، سوى

أدوات الحلاقة وفرشة أسنان دسستها في جيب جانبي، ثم حملتها على كتفي... وحين أدركتها؛ وجدتها تزيدني طولا بقدر نفاش شعر رأسها.

استقبلتني بلهفة وبابتسامة ساحرة، سحبتْ حقيبتها الحمراء التي كانت قد أخفتها خلف كرسيها، وهي حقيبة متوسطة الحجم لا تزيد عن حجم حقيبتي.

خرجنا من الفندق معا، توجهنا إلى عجلة التكسي التي كانت تقف إلى جانب من مدخل الفندق. ركبت إلى جانبي في الكرسي الخلفي، هُيء لسائق التكسي الذي لا يجيد الإنجليزية بأنها زوجتي.

في مشوار الطريق كنت قد تعرفت عليها ومسكت يدها وعصرت أناملها التي كانت بنعومة فراء القطط، حاولت أن أقبلها، لكني تذكرت عصا الضمير التي تركتها معي زوجتي على حين غفلة، وكأنها هفتت على رأسي، فتجنبت المجازفة هذه المرة.

الفتاة من أصول إيرانية، متوجهة في رحلتها إلى ألمانيا، حيث تعمل موظفة في شركة سيارات مرسيدس المعروفة منذ ثلاث سنوات، كانت في جولة سياحية في دول الساحل المتوسط، حيث ابتدأت من إسبانيا وإيطاليا ثم اليونان، أما مسألة الصليب فأنه لا يعني لها شيء، أنه مجرد موضة ولا يدل على حقيقة انتمائها للدين المسيحي، حتى أنها لا تهتم لإشكاليات مسألة الدين بشكل عام، ربما تكون مجوسية

المـذهب أو ملحـدة، ربمـا أدعـت المسـيحية لتمـنح إقامـة فـي أوربا، التي تخفي تحت قناع الإنسانية وجهها العنصري..

خـلال الطريـق كنـا قـد تبادلنـا أرقـام الهواتـف فيمـا بيننـا، قلـت لها وأنا أبغي وصلها ونيلها:..

- جئـت لأبحـث عـن اسـتقرار فـي أوربـا، سـأجرب حظـي فـي السـويد يـا ليلـى، فـي حالـة عـدم تـوفيقي، سـأحاول الكرة في ألمانيا لأكون قريبا عنك.
- السـويد بلـد اسـتقرار، ألمانيـا بلـد عمـل، لكـن لا تظـن أن تجـد راحـة بـال بعيـدا عـن الـوطن الأم، ومـع ذلـك سأكون في خدمتك متى قدمت يا وائل.
- أن شاء الله.

لا أدري لـمَ لـمْ أغشـها باسـم مـزور كمـا كنـت أفعـل مـع بـاقي النسـاء اللاتـي صـادفنني، لكنـي تقبلـت الوضـع ووجـدت ذاتـي تميـل لهـا ميـل الغصـن لسـحر وجدتـه فـي أنفهـا أوقـد فـيَّ محبـة زوجتي.

حـين وصـلنا المطـار ودعتهـا وكلـي أمـل أن ألتقيهـا يومـا مـا، وقبـل أن تفـارقني طبعـتْ علـى خـدي قبلـة، فيهـا مـن الحـرارة واللاذعـة مـا تجبرنـي علـى تغييـر وجهتـي، ولكنـي كنـت محكـم بتـذكرة السـفر، وجـواز مـزور كنـت قـد اقتنيتـه مـن صـاحب المقهى أنفا.

على أية حال، تركت تلك القبلة أثر على الخد صعب أن تنسى كالرصعة التي أتغزل بها، لما لها من دفء وشبق، بقيت تشهق بطيب أنفاسها حتى حين...

حينها أعدتُ لها قبلتها بقبلة على الخد والشفة المغنجة؛ حتى استمالت بنا الأشواق لغاية التجني، حينها أسرتها قائلا:.....

- لك شفة من نار وصدر من مرمر لجماله وسحره.
- شكرا لإطرائك...
- لا أظن أطيل البقاء في السويد، قبتك هذه ستقودني أليك قريبا.
- وأنا سأكون بانتظارك.

قالتها ومضى كل منا لوجهته، بقيت نظراتنا تلاحق بعضنا، وبقيت تلك القبلة التي شطت الروح تستعر على الخد، تفيض حافظة الروح إلى مهاوي نهديها. كأني لم أرَ أنثى بفتنتها قط، بقي طيفها يدور في فلكي، كاللمعة الذائبة في ثنايا الثدي.

مع وداعها كنت قد أغلقتُ رتاج الذهنِ والقلبْ عن جميع النسوة من حولي، وأنا أقطع تلك الأجواء الغائمة، متأملا أن التقيها ثانية.

بقيت مسترخيا اتصفح لحظات الصمت والذهول التي قضيتها وأنا أتأمل وجهها بشوق ورغبة، متقيدا بنار تلك القبلة السليطة التي جمعت إبر الشوق وغرزتها في نقطة

تجعلني أنحرف في تفكيري، أنحدر نحو مفاتن جسد كل أنثى. بقيت متوهجا بتلك القبلة حتى أدركت ثلوج السويد دون أن ينحرف فكري عن طيف خيالها قيد شعرة، لصخبها وألقها ورونق وجهها.

فحص الكرونا

غادرت السويد بعد المكوث فيها قرابة خمس سنوات من المرار مع مجموعة من هم على شاكلتي، كنا نفذنا من منفذ مدينة تلبوري السويدية إلى مدينة ترافومونـدا الألمانية بواسطة الباخرة، ليستقر بنا المقام في مدينة كيمنتس في مقاطعة سكسونيا.

في كيمنتس تجددت العقد علينا بسبب تعقيد الإجراءات التي تتعامل بها المانيا، وخاصة مع تفاقم جائحة مرض كرونا الخبيث، حيث أجريت لنا عملية فحص وحجر صحي دام أسبوعين، في ظل طقس سيء للغاية.

في تلك الصالة، وبين جدران الانتظار الباردة، وجدت نفسي أراقب الوجوه كمن يبحث عن قصة تُروى أو مسرحية تُكتب. كنت أتمعن في الملامح، في الحركات، في الصمت الذي يصرخ أكثر من الكلام. أردت أن أهرب من غربتي إلى خيالٍ ينسيني قسوة اللحظة، فبدأت أدوّن في ذهني ملاحظات عن كل من شدّ انتباهي.

جلست قبالتي فتاة ألبانية، رقيقة القسمات، لا يتجاوز عمرها العشرين. كانت ترتدي بجامة وردية من قماش القديفة، تنساب على جسدها بنعومة، وملامحها تنطق بجمال هادئ. شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها كضوء خافت، لكن شيئًا ما في

حضورها كان باهتًا. برود دمها غطّى على حسنها، فلم أشعر تجاهها بأي جاذبية، وكأن جمالها كان صورة بلا روح.

إلى جوارها جلست فتاة أخرى، من الكونغو، ببشرة داكنة تتوهج كجمرة مشتعلة. كانت ملامحها حادة، وجسدها قوي، لكن في عينيها لمعانٌ من الألم، وفي قسماتها صلابةٌ تشي بمشقة الطريق. رغم شراستها الظاهرة، كانت تحمل جاذبية فتاكة، كأنها جمعت بين النار والندى، بين القسوة واللطف، بين التعب والأمل.

بدا عليها الإرهاق، فاستسلمت لجسدها المتعب على الكرسي، ساقاها ممدودتان في تراخٍ يشبه الاستسلام، كأنها تذوب في لحظة من السكون. كانت ملامحها تنطق بالحيوية، جسد ثري، مبهج، ريان، مغنج بالعذوبة والحيوية. لرشاقة الساقين والبريق المخفي في ثأدة الفخذين والفتنة في بروز الثديين المنتبذين بالبهاء، جسدها يعكس طاقة دفينة من العذوبة والبهاء، لا تُقارن ببرود الألبانية التي جاورتها. في حضورها شيء من السحر، من الجاذبية التي لا تُفسر، كأنها تنتمي لعالم آخر، أكثر دفئًا وأقل قسوة.

كانت في عمر الورد، لم تكمل دراستها، وانحدرت خلف حلم الهجرة، باحثة عن فرصة تعيد ترتيب حياتها، عن راحة لم تجدها في وطنها. لكن الرياح التي عصفت بأمنياتها في ساكسونيا لم تهدأ، وظلت تصفر في وجهها، تذرو أحلامها في

متاهـات الإجـراءات المعقـدة والقـرارات الجافـة التـي يتعامـل بهـا الألمان، وكأنهم آلات لا تعرف الرحمة.

جـاءت تبحـث عـن بصـيص أمـل وسـط أشـواك القيـد والعنصـرية، عـن حيـاة تليـق بكرامتهـا، عـن سـقف يقيهـا مـن قسـوة الواقـع. وفـي لحظـة تأمـل، وجـدت نفسـي مشـدودًا لحضـورها، لـيس لجمالهـا الظـاهري، بـل لمـا يشـع منهـا مـن طاقـة إنسـانية، مـن نـور داخلـي يلامـس الـروح. كانـت كأنهـا ضـوء خافـت فـي عتمـة الانتظـار، يـرقص علـى أطـراف الـذاكرة، يـوقظ فـي الـنفس شـيئًا مـن الحنـين، من الطفولة، من البراءة التي افتقدناها في زحمة الغربة.

تلـك الفتـاة جـاءت تبحـث عـن الكمـأة بـين أشـواك العقـد وأحكـام القيـد وفتائـل الإذلال وشـبح العنصـرية، لترفـع سـقف المعيشـة لدرجة المقبولية، قياسا إلى ما كانت هي عليه في بلدها..

لجاذبيتهـا، صـرت أتبـع فتنتهـا بشـيء مـن البلاهـة فهـي مفعمـة بالحيويـة والأنوثـة. أهجـس فـي جسـدها ضـوء يتحـرك مـع شـفق الحـدق، يحـرك مستشـعرات الرغبـة خلـف أفتنـان الجسـد، يـداعب أوتـار الولـه علـى قيثـارة الفكـر، يشـعرني بلسـعة النـار المسـتكينة فـوق طـراوة الفخـذين وتنهـد الثـديين. ضـوء قـد لا يـراه غيـري، ينفـذ مـن فتنـة الشـفاه والبشـرة، يـرق فـي الجسـد كرجـراج القمـر وهو يتمادى بنوره في أمواج البحيرة...

ذلـك مـا دعـاني أن أسـهك عـواطفي برغبـة مكفولـة فـي تلـك المبـاهج، بـت أشـعر بـذاتي قريبـة مـن قطـف ثمارهـا الدانيـة، لـذا تمـادت عينـيَّ بزيـغ نظرهـا عـن قصـد، وجـدتْ فـي قوامهـا الرشـيق

بهاء غصن غض، يوافق عمق نظرتي وقياساتي إليها، لاستقامة القد.... ما شدني إليها هو تلك النكهة الذائبة من الشكولاتة بشرتها، نكهة القهوة المرة عند السهاد، لحظة تأمل البحر عند المساء. أهجس بأكثر من ذلك، للغنج الرائب في طراوة البشرة ودبدبة الفخذين وأناقة الساقين.

تلك اللدانة والجاذبية واضحة في القد وطراوة البدن، وبالذات في الخيزران الممتد من الكاحل لعنجرة الأرداف. لذا صرت أتحيل الفرص لأستكشف ما في صرة الفتنة من سحر وجاذبية تشد حيويتي وتطفئ نار ولعي بسمرة البشرة.

كانت أكثر خشونة ورقة من الفتاة الالبانية، تلك التي لم أشعر بها أنثى، لضمور الصدر وصفرة الوجه، وانحباس الشفة. لم أجد فتنة واضحة بحبات العنب المعلقة بصدرها، وخاصة كانت ترتدي بجامة شتوية تضمر مفاتن الجسد.

لوحتان تجريديتان مختلفتان في التشكيل، أحداها جامدة عبثية وأخرى حيوية رومانسية. كانت ترتدي تنورة بيج قصيرة فوق الركبة بشبر، وقميص شيفون أبيض منقط بلون البنفسج، مفلج الياقة، تخترقه خطوط مائلة من لون تنورتها، معلقة على كتفها حقيبة نسائية صغيرة صفراء.

كان يجاورها رجل أربعيني من البانيا، ناشف الملامح، أملط، كجبل أجرد، منهك، مصفر الوجه، كان هو الآخر قد شاقه السفر فعانى ما عانى حتى أدرك مرامه..

من جانبي كان يجلس إلى يميني كل من أنس، وحاتم وعمر من الذين صحبتهم معي، وإلى يساري رجل لبناني أربعيني. في البداية ظننته الباني الجنسية، لتقارب ملامح وجهه مع الألباني الذي يجلس قبالتي.

الكل كان مجهدا، الكل لم يأخذ كفايته من النوم، الكل يشعر بالجوع وارتخاء عضلات جسده، النعاس غالب عليهم، مترنحون، كأنهم مخمورون، السُّكْرُ وطأ عليهم.

كانت مطروحة في الصالة طاولة مكتب كبيرة، استغل وجودها شاب جزائري، فأرتمى فوقها لإراحة جسده حتى صار يشخر من التعب. فيما كانت الالبانية مكسورة الرقبة على كتف زميلتها الكونغولية، بينما الكونغولية منحنية الرقبة إلى الامام، مفلجه ساقيها، وبين فترة وأخرى كأن شوكة الحياء تغزها فترتد لوعيها، فتلم تلك الساقين لتستعيد ذاتها.... ثم بعد هنيهة فقط تعود لأدراجها، فاقدة تركيزها وركيزتها، لتكسر رقبتها وتفلج ساقيها، لشدة الأرق والنعاس.

كنت لا أجد مانعا من أن أستغل الفرصة فأسترق نظرة من تلك الأفخاذ الملتهبة لأنها تجلس قبالتي بالضبط وبيني وبينها مسافة ثلاثة أمتار فقط، كنت مجبورا في تبجحي فالقاعة مزدحمة، كنت أهجس بالفتنة اللاذعة هي التي تتبعني، ترشدني إلى الحمامة اللائذة في أيكها وهي تخفق بين الأفخاذ كركة على بيضها، للجاذبية المراءة، المنبثقة منها كشعلة جمر تتقد في سمارها.

مع كل نظرة أهجس بها تلسع ذاتي كعقربة، أحيانا أخجل من ذاتي، فاغض الطرف عنها، ثم أجد نفسي لهجة تتبع فتنتها، لا أقاوم ضعفي، فأعود أبحث عن تلك الحمامة في ديجور ذلك السقم والعذاب، منشدها بسر اللمعة المدفونة في جوهرة البشرة..

لم أستطع أن أغض الطرف عنها، ولعدم وجود كراس أخرى شاغرة، لذا تجدني شارد الذهن، مهووس بتلك السيقان الملهمة. كلما قارنتها بالجمود القابع في وجه الألبانية؛ أرتد إلى نفسي، فأحرق زغب شرودي في اللهبة اللافحة من صدرها وافخاذها. لقد جعلتني أشذ عن طبعي، فأميل ميل المراهقين، بعيدا عن فكر الزمرة المحيطة بي.

رجال الامن كانوا أربعة، جميعهم من كبار السن، أحدهم قصير القامة، ذات كرش واضح ووجه طفولي دائم الابتسامة. كانت مهمته نقل من يتمم فحصه للمشفى، لغرض تكملة إجراءات الفحص بتصوير أشعة إكسترا للصدر، ثم يعود بهم لكامب الحجر الصحي. وآخر كان متزنا بعمله خلف أجهزة الكومبيوتر لتجهيز هويات الأوسفايزر للمهاجرين، فيما الثالث كان يرتل برجله اليمنى، نحيف الجسد، ناشف الوجه، شاحب اللون، ذات أنف طويل كمنقار اللقلق وشارب مشظ في الوجه كأشواك الصبير المنتبذة، تخفق في عينيه الزرقاوين لمعة غيض وحقد إزاء المهاجرين. تكفل بواجب نقل ملفات المهاجرين بين الإدارة ومكتب تجهيز هويات الأوسفايزر.

فيما كان الرابع مسكينا، محتارا بنفسه لفرط سمنه وشذوذ طوله، ربما محيط بطنه وعنجرة عجيزه تتجاوز محيط دائرة بقطر مترين، إذا ما أخذنا طوله الفارع الذي يتجاوز المترين بعشرين سنتمتر. كنت قد مثلته بخزان نفايات، وهو يتحرك في الممر أشبه بغول غابات أفريقيا. أنه أضخم الجميع، تشعر بكل فردة من بنطلونه بحجم كيس نفايات البراميل، لفرط سمنه.

كانت فترة الانتظار مملة جدا، تجاوزت حدود الساعتين دون ان يدخل شخصا من مجموعتنا لغرفة الفحص، بسبب انشغالهم في المجموعة التي سبقتنا. بعد تلك الفترة العسيرة نودي على الألباني وأثنين من الافغان ليدخلا غرفة الفحص.

خلال فترة الفحص كانوا قد تأخروا كثيرا، حينها سألني الذي يجلس يساري، كان كلامه بطيء جدا، وكأنَّ شحن بطاريته قد فضت طاقتها، لذا توقعته من أصول ليست عربية، ثم أنه تكلم معي الفصحى، حيث قال:.....

- لـــــمـمـمـــاذاااا تأخـــرووواااا.....

كأنه لم يتقن العربية، فقلت له:.....

- ما شاء الله أنت تتكلم العربية الفصحى، أين تعلمتها؟ قال:.....
- يـــــاااا أخـــــي اانـــــــاا عـــــربي مـــــن للبـنـــاان...هههههههه.

صـرت أضـحك عليـه وأقهقـه؛ حتـى دمعـت عينـاي هههههههههـه، حيـث فـي المـدة التـي تكلـم بهـا الكلمـة، اسـتطيع نطـق ثـلاث جمـل، فقلت له ضاحكا:..-

- ما بك؟ لم انت بطيء الكلام؟ .... قال وهو يضحك:..
- لقـد تعرضـت لحـادث، فأجريـت عمليـة فـي الحنجـرة والمريء.

كـأني حركـت الـدم فـي جسـده فصـار يضـحك ويهتـز علـى ضـحكي...هههههه. بصـراحة أسـتخطيته، لكنـي كنـت متعبـا، فلـم أعـر أهميـة لـه، كنـت أود أن أشـغل بـالي بـأي شـيء لأنسـى همـومي وهـم الهجـرة، وخاصـة تلـك السـمراء كانـت قـد شـغلت بالي بجاذبية سيقانها، فصرت أتبع فتنتها بين الفينة والفينة..

مـا أن يـداعب جفنهـا الوسـن؛ حتـى ترتخـي عضـلات جسـدها كغصـن ذاو، فـتفلج السـاقين، فتبـدوا الحمامـة نائمـة فـي عشـها. كانـت ترتـدي لبـاس بكينـي أسـود اللـون.... مـا أن يرتـد لهـا وعيهـا؛ حتـى تعـاود لملمـة سـاقيها. كأنهـا كانـت تـدرك بـأن هنـاك مـن يتبـع مفاتنها.

بعـد مـدة تجـاوزت النصـف سـاعة عـاد الألبـاني لمقعـده بوجهـه المتعـب، فخطـرت فـي بـالي قصـة نتيجـة الإرهـاق الـدائب فـي وجهه.

فـي البدايـة لـم أكـن منتبهـا علـى لباسـه وعنـدما عـاد لفـت نظـري تمزقـات بنطلونـه مـن موضـع الركبـة والحجـل، وتـراخ فـي لبـب

قميصه المفلج أزراره، تهجس به بوهيمي المنشأ، حينها قلت لعمر وحاتم وانس الجالسين يميني:..

- انظروا إلى الألباني، لقد ذهب سليما معافى، وحين عاد؛ عاد ببنطلون ممزق وبوجه شاحب وقميص مقطع أزراره، كأنه حين دخل غرفة الفحص، أحدهم بصق بوجه، وما أن التفت عليه حتى صعقه أخر بعجل على قفاه ليسقط أرضا، ثم سحله الثالث على البلاط ليدلقه خارج غرفة الفحص. هههههه.

هههههههههههه، وما أن أكملت كلامي؛ حتى ضجت القاعة بقهقهة شديدة، صارت الدموع تنهمر من العيون، صرت أضحك على ضحكهم، صار الكل مستغربا، يا ترى ماذا جرى ليغرقوا بالضحك؟ لا يوجد ما يلفت النظر...هههههه..

بعد أن هدئنا بفترة وجيزة جاء الشرطي البدين الضخم مناديا على شاب افغاني، كان الافغاني وهو يمشي إلى جانبه كأنه صعلوك قزم، قُيِدَه من يده ثم سحبه لداخل الممر، فقلت لأنس وحاتم:...

- الظاهر هذا الشرطي لم يفطر هذا اليوم، أخذ الأفغاني يتغدى به.... هههههههههههههه.

هههههههههههه، لم نستطع كبح جماحنا، كأنما انشقت اشداقنا بالضحك والكركرة العالية، شهقت أنفاسنا، صرنا نبكي من شدة الضحك، الوجوه تلتفت علينا، ترمقنا بنظرات

استغراب، دون أن تفقه سبب ضحكنا، دون أن تعرف شيئا عن مغزى حديثنا، لأن معظمهم لا يجيدون العربية، كان الموقف يوحي إلينا المشهد دون عناء.

استمر هذا المنوال فترة قصيرة، كأنه نزل وحي الإلهام على فكري، نسينا بها أنفسنا وشزر هم الهجرة والانتظار. كانت الوجبات تذهب للفحص وتأتي متأخرة دون أن نعرف السبب، حتى فرغت القاعة ولم يبقى فيها سواي والفتاة الالبانية ورجل تركي..

قبل أن أدخل غرفة الفحص جاءوا بوجبة غداء لنا، حينها كنت منهكا من الجوع، فأخذت قطعة خبز إضافية من الكيس، لكن الشرطي الحانق ذات الشوارب الشوكية سحبها من يديَّ، فوجت في سلوكه إهانة لي، واجهته بحفظ كرامتي وبذات الكيفية، دلقت صحن الأكل عليه رافضا أكله، فلم يتأسف أو يتراجع عن موقفه قط، أخذ الصحن والخبز دون أن يلتفت إليَّ، تركني ألوب من الجوع في الصالة ببطني الخاوية حتى جاء دوري في الفحص....

حينها اقتربت الساعة من الرابعة والنصف مساءً، دخلت غرفة الإدارة، اللذين طلبوا مني التوقيع على بعض الاوراق، ثم سألوني أسئلة عابرة، أن كنت أحمل نقودا في جيبي أو جواز سفر وكيف دخلت ألمانيا ولم أخترتها....الخ من أسئلة روتينية باردة تشبه سلوكهم.

بعدها دخلت غرفة الطبيب ليأخذوا عينة دم لغرض التأكد من خلوي من مرض جائحة كرونا، كانت الطبيبة بنفسها تأخذ العينة من المراجعين...

حينها عرفت سر تأخر المراجعين في غرفة الفحص....

وجدت الطبيبة كهلة جدا، شمطاء، كان قد لصغ الجلد على العظم لشدة كهولتها، نحيفة البدن، تعاني من شلل نصفي، لأنها كانت تزحف بقدمها الشمال. أقدر سنها في التسعين من العمر. كانت بذاتها تسحب عينة الدم، لذا في محاولتين أخطأت العثور على الوريد، صارت تبتسم بوجهي لأستميحها العذر وهي تسحب الدم وتقيس ضغط الدم..

صرت أعاونها على عملها، أربط حزام ضغط الدم على الساعد، وأشد ربله على العضد لينتفخ الوريد ويبان موقعه.. جربت ثلاث وخيزات إبر في ظاهر الكف؛ حتى تمكنت من سحب الدم.. في كل مرة كانت تعتذر مني لرجفة يدها وضعف قواها، فكنتُ أبتسم لها، وأقبل اعتذارها... بعدها خرجت من غرفتها قرابة الخامسة مساءً لأكمل إجراءات الفحص في اليوم التالي.

الزنبقة

أسميتها "الزنبقة"، لرقتها وأناقتها وخفة ظلها، ولسمرة بشرتها التي تشع دفئًا كضوء الغروب. إنها أميمة، الفاتنة الفتية، ابنة العشرين عامًا، تبدو في تكوينها الرشيق كزنبقة برية في ذروة تفتحها، تنضح بالحيوية والنبوغ، لماحة، ذات حضور يأسر، تحكمها الحنكة وتزينها الأناقة.

في مشاويرها، كانت تنزوي بين فتيات الكامب، تتنقل بخفة بين المطعم والأسواق، تتجنب ضجيج المعاكسات العابثة، وتتحاشى نظرات الشبان الذين يرون في جمالها متنفسًا لغربتهم. كانت تفضل العزلة في زاوية المطعم، أو تختار الجلوس بين النسوة، هربًا من أعينٍ لا تعرف إلا التطفل.

أما في أوقات الفطور، فكانت تفضل النوم على رتابة الوجبات المتكررة، إذ لا فرق بين فطور الصباح وعشاء المساء في ما يُقدّم لنا.

كان يترقبها خفية، دون أن تعلم. وفي أحد الأيام، رآها تنحدر نحو المطعم، تمشي الهوينا، فقرر أن يلقاها في منتصف الطريق، خلف البناية الثالثة المهجورة التي تحولت إلى مخزن للتبرعات. أراد أن يفاجئها، أن يبوح لها بما يجيش في صدره من شوقٍ ولهفة، أن يغوص في أعماقها ويكشف لها عن أعماقه، عساه يجد في قربها خلاصًا من هوسه وغرامه.

انتظرها بلهفة المتيم، يزداد شغفًا مع كل خطوة تخطوها نحوه. لقد تيم بها كما تيم قيس بليلى، حتى صار يساوم نفسه على تقاليده، ويقنع ذاته بأن البوح ضرورة لا مفر منها. أراد أن يخطفها من بين الجموع، قبل أن يميل قلبها لغيره، فوجد في اقترانه بها حلمًا وسعادةً وحريةً طالما تاق إليها.

كانت قد أسرته دون أن تدري، جعلته يتبع ظلها كمن يسير خلف نجمٍ في ليلٍ دامس. تراءت له من بعيد كزنبقة فواحة، يضوع عطرها في أجواء فكره، فيستنشق نفحها المفعم بالسحر والدفء.

لقد فكر بها طويلًا، قبل أن يقرر أن يواجهها، أن يبوح لها بما يعتمل في داخله من ضيقٍ وشوقٍ ورغبةٍ في الارتباط. كان قد صف شعره، واحمرّت وجنتاه، ورأى نفسه في مرآة ظنه فارسًا قادمًا من زمن العشاق.

وما أن اقتربت من البناية المهجورة، حتى وثب أمامها كمن كقط وجد ضالته. فاجأها في الممر الضيق المؤدي إلى المطعم، وهي تمشي بخطى هادئة كنسيم الصيف، فشعر بنسمة فتنتها ترتجف في صدره، تلامس جمرة شوقه.

ما إن جفلت حتى تخضبت ملامحها بالخوف والحيرة؛ تغير لون وجهها بين سمرة مصفرة واحمرار متوهج، كأنما انسكبت عليها دهشة اللحظة. حركت ذوائب الشوق في أنفاسه، وأضحى كمن لا يحتمل صمته ولا يصبر على وجده. كان قد استعد للقياها بجذلٍ مشوبٍ بالارتباك، بقلبٍ

مضـطرب، وجسـدٍ مهـزوز، جرفتـه رهافتـه وخـواطر فيضـه نحو نجواها.

ومـا إن وثـب أمامهـا حتـى تفاجـأت بظهـوره، كـوحشٍ يـود افتـراس حمامـة. ارتعـدت أطرافهـا خيفـة، فقـد أرعبهـا بسـلوكه الأهـوج. لـم تـره مـن قبـل، لـم تنتبـه لوجـوده، لـم تتعـرف علـى ملامحـه، ولـم تسـمع عنـه شـيئًا. ومـع وثبتـه، وضـعت يـدها علـى قلبهـا فـي حركـةٍ خاطفـة، تعبيـرًا عـن ارتعادهـا، وهـي تتسـاءل في داخلها:

مـن هـذا المجنـون؟ مـا الـذي جـرى لـه؟ لمـاذا تعـرض لـي دون مقـدمات؟ مـاذا يريـد منـي؟ بقيـت مشـدوهة البـال للحظـة، لا تـدري كيـف تتصـرف، ولا كيـف تتعامـل معـه. ففـي لحظـات العصـف المفاجئـة، تختفـي المبـادرة عـن الـذهن، ينسـى المـرء ذاتـه، ويفقد تركيـزه. وجـدت نفسـها فـي حالـة مـن الـذهول والشـد، يرثى لها. فسألته باستغراب، بصوتٍ مرتجف:

- من أنت؟ ولماذا فعلت هذا؟
- Please speak English
- -I don't know English
- I love you
- لا إله إلا الله.... حل عني...
- I want to marry you
- I don’t want to see you again Leave now
- But I love you

- أمشي العن حظك لابو الي جابك..

دلقته بيدها ومضت تمشي في طريقها للمطعم، فيما بات قلبها يخفق خيفة واضطرابا، أنتفض جنونها، لا تعرف ماذا تفعل حيال ذلك الموقف، كيف تتصرف مع متيم بها، صارت تهذي مع ذاتها وتقول:...

"مجنون، هي هي، باكستاني... هههههه، ناقصة قرف، لو كان عربيا لقلنا لابأس، أنت.. استغفر الله العظيم. كيف أتصرف مع شخص همجي؟؟؟؟ اشكيه أم أنتظر؟ أنه يبدو متوحش"....

تركته متسمّرًا في مكانه، وهي تحوقل وتستعيذ بالله، تمضي بخطوات متسارعة نحو المطعم، وقلبها يضج بالخوف من أن يتهجم عليها أمام الملأ. بدا لها سلوكه وقحًا، همجيًا، كأنما لم يلتقِ بأنثى من قبل. لا بأس إن كان معجبًا، ولكن... آه، ما هذا الجنون؟

رغم ارتباكها، أخذتها نشوة خفية. طالما أعجب بها، فلا بد أن فيها ما يفتن، بل أشياء كثيرة لفتت انتباهه. وقفت أمام المرآة طويلًا، بحجة غسل يديها، تتأمل ملامحها وتتساءل: ترى، بماذا فُتن؟ بوجهي الناعم؟ ببشرتي التي تذوب بلون الغسق؟ برشاقتي؟ بطولي الممشوق؟ يا إلهي... من حقه أن يفتن بي. كم سمعت هذا الإطراء من شبان وصديقات، فتنّ بي، أغرمنّ، وأعجبنّ بأوصافي. ربما أنا جميلة حقًا دون أن أدرك قدري. إذاً، لا خوف عليّ من المستقبل.

ثم ارتدت لوعيها، وضحكت في سرّها: "ههه... أيه يا هبلة، أين ذهب بكِ التفكير؟ لا زلتِ فتاة مفعوصة، لا ميزة فيكِ. إنه هوس مراهق لا أكثر."

في المطعم، جلست قرب عائلة ليبية، تبتغي الأمان. وما إن أتمّت غداءها، حتى عادت إلى غرفتها برفقة إحدى الفتيات، دون أن تفصح لها عمّا جرى. مرّت من أمامه، وهو لا يزال متسمّرًا في مكانه، لم يكلّمها، لم يتهجم، لكنه غرزها بنظراته الغضنة، نظرات ثاقبة، فيها أسف وشك وريبة.

بقي واقفًا، تتقلب الحسرة في صدره كجمرة تتوهج. أبعدته عن الآخرين قوانين ومحاسبة ومجادلات وأعراف اجتماعية وأمنية تخص الكامب واللغة والعادات، كلها كانت حائلًا بينه وبينها.

يا ترى، ماذا ضمّر لها خلف تلك النظرات الوحشية؟ هجست بها نظرات ذئب، ووحشة فطيم متصحر، يملأ قلبه هيام أعسر، وحسرة مبالغ بها. أميمة وجلت من تلك النظرات، شعرت فيها بالتباس وتخمين وتحسّب، كأنه مغيّب الذهن، مرهق، متيم. خلف حدّتها يقف تحدٍّ واضح، وتكهنات عقيمة، واستفسارات لا جدوى منها. وجدت في استفزازه مخاطرة يصعب تمريرها.

لشدة رهبتها، صارت تجري بقدميها ويديها، تحاول أن تلقف باب غرفتها بأسرع ما يمكن، لتنكب على سريرها. كانت قد سمعت منه تمتمة خلال عودتها، هذرًا لم تفهمه، لم ترطن له، لكنه أربكها.

المصيبة التي أرهقته، أن أميمة بوجهها العابس الغاضب بدت أشد فتنة مما لو ابتسمت. هجس بنور وجهها وهي جانحة بسخطها، كنور القمر في واحة السحر، فتنة مرهفة، مرآة أرهقت ناظره، أغشت فؤاده. ذلك الألق، كأنه شعل مصابيح تشع في ظلام فكره.

فكّر أن يتبعها دون أن تعلم، ليتعرف على رقم غرفتها، ليعود إليها بعد أن تهدأ، ويفتح لها صنبور أشواقه. عسى أن ترهف له، وتلين أمام عصفه. شعر أنه أخطأ بسلوكه الهمجي، وأراد أن يبهج قلبها بشبابه، بلحظة صمت، عسى أن يقطف منها نظرة إعجاب تريح أعصابه.

خلال تعامله الأولي وجدها صرة معقودة، صعب عليه فك ألغازها وترتيب احجيتها، وجدها جبل أشم، أجرد، منيع، لا يمكن تسلق قمته بالطرق العادية، المسالة تحتاج لحنكة وصبر ومكر. لذا أعد ذاته لجولة الثانية، جولة يحدد موعدها بذاته، عسى أن يتمكن من سرقة مكنونات جواهرها.

*****

في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن تجاوزت هزيعها بساعة أو اثنتين، في تلك اللحظة المغشاة بسكونٍ ثقيل، حيث الناس نيام، كان قد لزم جناح غرفتها، يدور في فلك عشقه كدبور تائه، أو كضليعٍ يترنح في صحراء وجدٍ لا نهاية له. يرتجي ظهور القمر في ليله البهيم، ليسترق منها نظرة ودٍّ تسكنه،

تشفي غليله. طرق بابها، أشعرها بوجوده، لكنها لم تستجب، لم تحادثه، لم تمنحه حتى صدىً يطفئ شرر شوقه

غاص بكامل كيانه في وحل غرامها، تيم بها كتيم النوارس على شواطئ البحر، كبل بها كأسيرٍ لا فكاك له. لم يهتم للألسن الممعمعة، ولا للنظرات المشوبة بالريبة، ولا للعناء الذي سيلحق به في تلك الليلة الباردة وهو جالس أمام بابها؛ كل ما أراده نظرة رؤومة، همسة، لمحة، شيءٌ طفيف يطفئ بركان شوقه.

هكذا ظل يجوب أروقة الكامب ذهابًا وإيابًا، ساهيًا، مضطربًا، نافقًا فكره في عصف هواها. مترنحًا، ممسوسًا، مسعورًا بسلوكه المخل، كأنه فقد تركيزه كشارب خمر، لا يعرف سبيلًا يعينه على كسب عطفها أو سرقة نبض قلبها.

صار يصارع الزمن، ينتظرها كنجمة الصبح، دون بارقة أمل في سمائه. ومع ذلك، ظل مرابطًا أمام باب غرفتها، يواصل تحديه، لا يكترث لنظرات الناس، ولا لوسوسة الشياطين. جاء بجوارحه الجائعة، العطشى، الرهيفة، جنح بفكره نحو شواطئ قلبها، متمسكًا بعهدٍ قطعه على نفسه: ألا يعود خائبًا حتى يمسك بأذناب القمر.

راجع طالعه، عسى أن توائم صفات برجه، الثور، مع برجها العذراء. كان همجيًا في سلوكه، كالثور الذي لا يرى أمامه سوى أميمة، فيما هي، برزانتها وهدوئها، تميل لأدراج العذراء. رآها جوهرة لا تُقدّر بثمن، وهي كذلك: كاملة

الأوصاف، رزينة، طرية، بريئة، جميلة المعالم، تمتلك من الخصال ما يخلج الثلج بالنار. تمسك برغبته المجنونة، هجس أنه إن اقترب منها، سيهلك بأحد القدرين: إما يحترق بلظى الجمر، أو يشلّه ثلج العناد. وفي كلتا الحالتين، سيكون عبدًا لهواها.

ترى، ماذا عليه أن يفعل؟ المجازفة أحيانًا تفي بالغرض، وأحيانًا تنقلب عليه. لكنه قدّر الحسبة بدقة، أدرك أن الأنثى الصعبة لا تأتي لجادة الطريق إلا بمغامرة تلفت نظرها، مجازفة تتجاوز عنادها، تفوق سحر فتنتها، تليّن قلبها، تحرف بوصلة القلب نحوه.

لكي تتساوى المعادلة، عليه أن يكسر التباين لصالحه، أن تكون عواطفه أقوى من شخصيتها، أن يخلق طفرة في سلوكه تلفت نظرها.

قرابة الحادية عشرة والنصف، خرجت أميمة من غرفتها لتغسل وجهها وتقضي حاجتها، لم تنتبه لوجوده، كان مختبئًا في الغرفة المظلمة المقابلة، يراقبها بصمت. وفجأة، طفق أمامها كالشبح، يرتدي السكون غطاءً، كشيطان أخرس يسير خلف خطواتها. هجست به، التفتت، وإذا بها تتفاجأ به أمامها، فقالت بعصبية:

— ما بك؟! ماذا تريد؟ لماذا تتبعني هكذا؟!هو أنت!!!! ترى ماذا تبغي مني؟...

- Please hear me- رجاء اسمعيني

- Lave this place know اترك المكان حالا

أجابتـه بحـدة أوقفـت غـروره، وقـف فـي مكانـه يتأملهـا بتوسـل قائلا:...

- I want you، I Love You أنا أحبك ، أريدك
- I don't wont أنا لا أريدك

بتلـك الكلمـات الحاسـمة، قطعـت أميمـة عنـه دابـر الطريـق. عـادت مسـرعة إلـى غرفتهـا، خائفـة، قلقـة، وأغلقـت البـاب مـن الـداخل بالمفتـاح، خشـية أن يهجـم عليهـا أو يغتصـبها. ظـلّ فـي خاطرهـا هـاجسٌ يحـذرها، صـوت داخلـي يصـرخ: "كيـف أتخلـص منـه؟ إنـه يلاحقنـي... عينـاه تشـعان شراسـة، ككلـبٍ مسـعور. لا أحـد قريـب أسـتنجد بـه. يجـب أن أبلـغ إدارة الكامـب، يجب أن أوقفه عند حدّه، إنه متوحش..."

هكـذا جالـت الأفكـار فـي رأسـها، ثـم عقّبـت علـى وضـعها بحسـرة: "كيـف أنهـي مشـواري فـي هـذا الكامـب وأنـا أعـيش بـين وحـوش ضـارية؟ هـذا يـروم وصـلي، وذاك يـدور خلفـي، وآخـر ينظـر إلـيّ بنظـرة إسـفاف وإسـفاد... كـل يـوم أتحسـس مضـايقات مختلفـة. هـل أذهـب إلـى أمـي فتـرة ثـم أعـود؟ لكنهـا بعيـدة، وإجـراءات الإدارة قاسـية، لا تبـدي أي مسـاعدة. هـل أقـدّم شـكوى ضـده لـدى شـرطة التحـري؟ آه... حينهـا ستُحسـب علـيّ مسـألة شـرف وكرامـة، وقـد تنقلـب ضـد سـمعتي. لا... لا... دعنـي أصـبر قليلاً. يا رب، مهد لي طريق النجاة، وأعني على مشواري..."

أمـا ذلـك الشـاب، فقـد بقـي مرابطًـا أمـام غرفتهـا، يتجـرأ أحيانًـا ويطـرق بابهـا، يـودّ إطفـاء جمـرة جنونـه فـي تلـك الليلـة، يطلـب مراعـاة قلبـه بعطفـة مـن لسـانها. كانـت تلـك فرصـته الأخيـرة. فعـل كـل مـا بوسـعه، لكنهـا لـم تسـتجب. صـدمها بعنـاده، وصـدمته بثباتهـا. لـم يسـتوعب عفتهـا وقرارهـا، ولـم تسـتوعب هـي غايتـه وتيمه. أصبحا في مفترق طرق، كقطبين متضادين.

وفيمـا هـو محتـار، غـارق فـي غيـه، سـمع أبـو سـعيد جلجلـة أمـام بـاب غرفتـه. أراد أن يعـرف مـا يجـري. ومـا إن فـتح البـاب، حتـى اصـطدم بشـابٍ غريـب، واقـف أمـام غرفـة أميمـة. شـاب نحيـف، مشعشـع الشـعر والفكـر والنظـرات، يسـتند إلـى الجـدار المقابـل، شـارد الـذهن، مغيّـب العقـل تمامًـا. مـن ملامـح وجهـه، تعـرف أبـو سعيد على جنسيته، فسأله ليلفت نظره إليه:

— "يا بني، ماذا تفعل هنا؟ هل تحتاج شيئًا؟":..

- أأنت عربي؟
- No

فحاوره باللغة الإنجليزية فقال له:...

- Why are you standing here لـمِ أنـت واقـف هنـا؟
- Wait for a friend أنتظـر صـديق.. "قـال ذلـك . بإحراج وخجل".

- But this is not a waiting place? Isn't it better for you to wait for your friend in another place like the mosque? - لكن هذا. ليس مكان انتظار؟ أليس من الأجدر بك أن تنتظر صديقك في مكان آخر كالمسجد؟
- No, I'm waiting for him here. لا أنا أنتظره هنا.... "كان صلفا في رده، مستميتا"..

لقد عرف غرضه، لأن هناك من سبقه وطرق باب ميرفت ودوكانا، وهو يحمل ذات الشكل والهوية، وكأنهم متحدين في النية والهدف. لذا واجهه بذات الصلافة، فقال له:...

- If you don't go,I will tell the camp administration about you.This place is for families only.

أن لم تمضي، سأخبر عليك إدارة الكامب، هذا المكان مخصص للعوائل فقط.

- I know,but;...well, I'm going أنا أعلم، لكن؛..... حسنا أني ذاهب.

ذهب وهو ضجر من وجود أبو سعيد، ذهب دون رضا، كأنه منع عنه قطران الشهد. حينها كانتْ قد تطمأنت أميمة بعد سماعها صوت أبو سعيد وهو يجادله، فخرجت للمغاسل لتغسل وجهها دون أن تخبره بأوليات القصة، ربما كانت خجلة،

محرجة. هكذا سرت الحالة ومن ثم كل منهم أنزوى في غرفته، كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل...

حين ترك المكان كان قد ذهب بجسده فقط ولم يذهب بفكره وروحه وظنه مطلقا. كأنه في تلك الليلة لم تغف له عين، بقي ساهدا، ساهرا يناجي صبره.. بعد أن ادركت الساعة زُلفا من الليل قبل بلوغ الفجر. عاود كرته عليها مرة أخرى بعد أن ضمن الجميع غارق في سباته، عاد يربت باب غرفتها ربتا خفيفا، حيث منعته أشواقه ولهفته من الاستكانة والاستسلام، لقد فعل فيه الشوق ما فعل فيه الفراغ الذي يعاني منه الجميع، حتى تجرد من فكره.

أما أميمة فأنها بقيت عصامية، تسمع تلك الربت ولا تبالي له، لم تستجب له ولم تفتح الباب، تركته يتوسل بها توسل الطير المذبوح. في الحقيقة كانت خائفة من سلوكه وهمجيته من جهة، وحازمة في موقفها من جهة أخرى. بقيت طوال ليلها وجلة في غرفتها دون أن يغف لها جفن، بثباتها صارت سيفا على رقبته قطعت دابر شكه باليقين؛ حتى عجز من إدامة سعيه ومحاولاته، فأضطر أن يفلَّ مكسور الخاطر مع شروق الشمس وقبل أن يقع في المحظور ومن ثم تنفجر عليه بالونة فضيحة التحرش، والتي تودي به إلى التهلكة وغياهب السجن.

وفي صباح اليوم التالي كانت قد قدمت شكوى ضده لدى الإدارة لمعالجة الأمر، والتي بدورها هددته بعقوبة التحرش

التــي تــودي بــه إلــى الســجن، وذلــك قبــل أن تنقلــه الإدارة لأحــدى القرى النائية لصلافته في ذات الأسبوع...

بتلك الطريقة تمكنت أميمة من أن تتخلص من ملاحقته....

زيارة طبيب

كان الخامس والعشرين من آذار عام 2021 يوماً مشمساً، دافئاً، يحمل في طياته نقيض ما كنت أشعر به داخلياً. ذلك اليوم صادف موعد زيارتي للطبيب، لمراجعة حالتي الصحية التي بدأت تتفاقم، لا لخطورتها، بل لما تثيره من قلقٍ ورتابةٍ تنغص حياتي، وتُحيل فراغي إلى هاوية من الهواجس. لم تكن الحالة مخيفة، لكنها تحولت إلى عبءٍ ثقيل، يتغذى من وحدتي بعد فراق زوجتي الحبيبة، ويشتد وطأه كلما مرّ الزمن.

صار ضغط الدم يشتط في جسدي، واختلت لديّ حالات التبول، حتى غدت غير إرادية، تداهمني على حين غفلة، خصوصاً في فصل الشتاء. عزوت ذلك للقلق، للهوس، للتفكير المستمر بها. قلّ نومي، ذبل جسدي، فقررت أخيراً أن أضع حداً لتلك المعاناة، وأن أزور الطبيب في مدينة كيمنتس، التي تبعد عن بلدتي شنيبرغ نحو أربعين كيلومتراً.

ركبت الحافلة في العاشرة صباحاً، وكان علينا المرور بمدينة آوى. هناك، صعدت فتاة رشيقة، لماحة، ذات أناقة آسرة ووجهٍ يفيض بالجاذبية. ما إن رأيتها حتى شعرت بذهول، إذ بدت لي نسخة طبق الأصل من زوجتي، في ملامحها، في طلتها، في فتنتها. جلست قبالتي، لا يفصلنا سوى مقعد واحد، شغلته امرأة مسنة.

لـم يكـن الشـبه فـي الملامـح فقـط، بـل فـي الحركـات، فـي البسـمة، فـي النظـرة، فـي العفويـة. خُيّـل إلـيّ أنهـا زوجتـي متنكـرة، بشـعرٍ مسـتعار، وعدسـات ملونـة، وبشـرة مختلفـة. لكـن تلـك الشـامة علـى حنكهـا الأيمـن، كانـت الـدليل الـذي لا يُخطـئ. كيـف يمكـن أن تكون مصادفة؟! لا، لا وألف لا... إنها هي!

غلبنـي الشـك، وتـاه عقلـي بـين اليقـين والحـدس. صـرت أتمعـن فـي تفاصـيل وجههـا، فـي شـفتيها، فـي وجنتيهـا، فـي أنفهـا الشـامخ، فـي كـل مـا يـذكرني بزوجتـي. النسـاء اليـوم يصـنعن المعجـزات فـي صـالونات التجميـل، يغيـرن كـل شـيء، حتـى أن الرجـل قـد لا يعرف زوجته إن خرجت من هناك.

انغمسـت فـي خيـالي، تخيلـت نفسـي أحتضـنها، أقبلهـا، أذوب فـي فتنتهـا، حتـى نسـيت كـل مـن حـولي، نسـيت الطريـق، نسـيت المـرض، نسـيت الزمـان والمكـان. كنـت أبحـر فـي وجههـا، كـأنني فراشـة تمـتص رحيـق زهـرة التوليـب، أرتعـش فـي حضـورها، أصـطلي بنـار جمالهـا، حتـى امتـدت شـفتاي نحوهـا، لتطبـع قبلـة الحياة على وجهها... ثم أفقت.

مـا أن دخلـت فـي أتـون السـهو والسـهاد، وقبـل أن تطبـق شـفاهي علـى تلـك الشـفاه؛ فـي تلـك اللحظـة الحرجـة والمراقـة مـن الحلـم وأنـا اتبـع الشـغف اللاعـج فـي قلبـي ومخيلتـي... أقـول فـي تلـك اللحظـة السـعيدة والعسـيرة فـي نفـس الوقـت؛ كانـت قـد لسـعتني بعوضـة مـن سـاعدي الأيسـر، جعلتنـي أجفـل لشـدة الالـم الـذي أراقتـه فـي موضـع اللسـعة.. ودون شـعور منـي صـفعتُ سـاعدي

الأيسر بكفي الأيمن بقوة، ما أدى إلى أنتباه الجميع على صوت الصفعة. ما أن رفعت رأسي؛ حتى وجدت في حدقاتها نظرة تأسف، لا أدري أن كانت قصدت سوء تصرفي وانحداري إلى عالمها الثاني، أم رأفت بها على حالي لشدة اللسعة.

تلك البعوضة الصغيرة، كأنها جاءت من عالمٍ آخر، سرقتني من خيالي، من تلك السكرة التي كنت أسبح فيها، وأعادتني دفعة واحدة إلى عالمي الحقيقي، إلى وضعي الطبيعي، بعد أن اختطفتني نشوة الخيال إلى سعادةٍ مرجوة، كنت أبحث عنها بشغف في ظل الفراغ الذي ينهشني. وكأنها أبت أن ألوك شفاهي بتلك الشفاه الوارفة، فغرست لسعتها في جلدي، فأخذت أحك موضعها بشدة، حتى كاد الدم أن ينزف من فرط الألم.

لا حكم لي على تلك البعوضة، لمَ اختارت تلك اللحظة بالذات؟ لحظة اندماج الروح بالسر الإلهي المراق على شفتين من نور، كأنها وحيٌ مرسل، جاء ليقول لي: "كف عن تطفلك يا مراهق، تحلَّ بالاتزان، لا تتهكم، ولا تتصرم في سلوك عبثي". فعدت إلى طبيعتي، متلفتًا يمينًا وشمالًا، أبحث في وجوه الركاب عن أثرٍ لما جرى، لكن الجميع كان غارقًا في همه وبحار هواه، لا أحد انتبه، لا أحد رأى.

وبعد هنيهة، عدت إلى شرودي، إلى خيالي، إلى تلك اللعبة التي كنت أزاولها مع نفسي، لعبة التحدي مع تلك الفتاة التي تشبه زوجتي حد التطابق، والتي أيقظت نار أشواقي، وأعادتني

إلـى زمـنٍ كانـت فيـه زوجتـي ركنـاً مـن أركـان حيـاتي، لا تغيـب عن الذاكرة ولا القلب.

تبـع الفكـر نظـرات العـين إلـى حقولهـا الخضـراء، إلـى ملامحهـا التـي لا تخطئهـا عـين، إنهـا حقًـا ملامـح زوجتـي، وهـل أغفـل عنهـا؟ غيـر أنهـا أرشـق قلـيلاً، أكـاد أقـبض علـى خصـرها بكـف واحـدة. حـين تبتسـم، تكـاد شـفتها تغطـي وجههـا لنحافتـه وضـمور خديـه، لكنهـا تملـك عيـون زوجتـي، أنفهـا، شـامتها، شـفتها... تلـك الشـفة التـي طالمـا أغرتنـي، فحسـبتها هـي، ربمـا نحفـت بفعـل الفراق، أو شدة التفكير بي، أو عجاف العزوبية.

عـدت للفضـول، لأنغمـس مـن جديـد فـي بحـر الخيـال، لأغـور فـي عـالم سـحرها، لأغـوص فـي متاهـة تلـك الشـفاه الندية، المغنجـة بالجاذبيـة، بلونهـا القرمـزي المقتضـب، كأنهـا فـص عقيـق مشـبع باللدانـة والرقـة. صـرت كالمسـتجدي، أتأمـل أن أنـال قبلـة، ولـو خيالاً، من تلك العناقيد المتدلية من كروم الفتنة.

مضـيت علـى شـاكلتي الأولـى، أبحـر فـي شـواطئ بحرهـا، هجسـت أن تلـك الشـفاه لا تنفـك عـن عـالمي، بـل تـدعوني لعالمهـا، تقتـرب منـي بقـدر اقترابـي منهـا، وكـأن بيننـا حثًـا كهرومغناطيسـيًا، انجـذبنا نحـو بعضـنا، صـرنا قطبـين متجـاذبين، مختلفين في الشكل، متشابهين في اللهفة.

تكـوّرت الفكـرة فـي ذهنـي، تلفـظ نـار الوجـد فـي صـدري، وددت أن أقتلـع تلـك الشـفاه مـن وجههـا لأضـمها إلـى فمـي، صـرنا نتجـاذب الرغبـة والغـنج، حتـى صـارت شـفتي تبحـر كموجـة نحـو

شاطئ شفتها، تتهادى في صبابة نحو الموقد المتقد، تود أن تتحطم على شاطئها. تمطت بها الرغبة إلى جوفها، هجست بعطب في اللهفة، بدا دخانها يتراقص أمام عيني كثعبان الكوبرا، يميل مع شطط الآهات النافذة من حشا الفؤاد.

وما أن دنت لحظة الاندماج بين المشاعر والهواجس والشفتين لحدود شعرة، حتى صعقتني العجلة بزعيق زمارها الموحش-طـــــــــاط- دعسة مفاجئة على المنبه، أيقظتني من نشوتي، حين اجتاز السائق منعطفًا ضيقًا بسرعة ورعونة، كاد أن يودي بنا إلى وادٍ سحيق، لولا رحمة الله.

هجست به كأنه كان يراقبني من خلال المرآة العاكسة، دعس على الزمار وكأنه يوجه لي تحذيرًا، يقول لي: "كف عن التبجح، لا تتجاوز حدودك، لا تقتحم حرية الآخرين". كأنه توجس نية سلوكي الجانحة، المراهقة، فصعقني بصوتٍ مدوٍّ، أعادني إلى الواقع.

صرت أسأل نفسي: هل هي فعلاً ساحرة؟ هل هي بشر؟ ففي المرة الأولى غلبتني بعوضة، وفي الثانية أقلعني زمار العجلة. أكاد أشك أنها ليست من هذا العالم...

أهجس بها، تحمل بين كتفيها آية من الرحمن، تحميها من الوحوش الكاسرة، حتى في لحظات السهو والخيال. تيقنت أنها مُسيَّرة ومأمورة، فإما أن تكون ملاكًا طاهرًا، أو زوجتي متنكرة، أو شيطانًا في هيئة بشر. وإلا، فما سر تلك الحوادث التي تمنعني من تخطي حدود الأدب معها حتى في خيالي؟ هل

لأنـــي أخـــالف حـــدود الشـــرع؟ أم لأن ســـلوكي منحـــرف أمـــام المجتمع؟

كنـت وحيـدًا، أتخـور فـي عـالم الغياهـب، أبحـر بقـارب مـن هـوس الجنـون، مـن نسـيج الحـب والخيـال، سـاعدني علـى تخطـي عجـزي لأصل شواطئ عينيها وضفة شفتيها، بشغفي وهيامي بها.

تـرى، هـل اقتـرب أحـدهم مـن عالمهـا كمـا فعلـت؟ هـل أخبـر أحـدهم السـائق بمـا يجـول فـي خـاطري ليحميهـا؟ ربمـا الكـل تخيلهـا زوجتـــه، الكـــل شـــاركني رغبتـــي، الكـــل حـــاول الوصـــول إلـــى شـواطئها بـذات السـرعة التـي عبـرت بهـا مفـازة عجـزي وقفـار أشواقي، فما كان منها إلا أن تنبهت، فأوقفت السائق همجيتنا.

بقيـت أفسـر سـر التشـابه الكبيـر بينهـا وبـين زوجتـي دون جـدوى. هـل فعـلاً خلـق الله مـن الشـبه أربعـين؟ إذاً، مـن الإنصـاف أن أتـزوج الأربعـين المتشـابهات، لأنـي أغـار علـى زوجتـي، ولـن يختـزل حبـي لهـا قيـد شـعرة، ولـن أسـمح لأحـد بالعبـث بهـا ولـو بنظرة.

هكـذا أردتهـا، وهكـذا تعلقـت بهـا، رغـم الفـراق الـذي حـال بيننـا دون إرادتنـا. شـعرت أنـي أحـق بهـا مـن الجميـع، أحـق بتلـك الفاتنـة التـي تجلـس قبـالتي. مـا الـذي دفعهـا إلـى ذلـك المقعـد؟ لا بـد مـن سـر خفـي، سـر يجمعنـا، جعلهـا تركـب ذات البـاص، تجلـس وجهـاً لوجه أمامي، حتى تقيدتُ بمحاسن فتنتها.

أنــا لا أؤمــن بالمصــادفة، فحــين أكــون بكامــل قــواي العقليــة، لا تكــون المصــادفة إلا خيطًــا مــن خيــوط الأســرار الغــائرة فــي مــا وراء الطبيعــة. جعلــت عجلــة الحيــاة تســحبها مــن واقعهــا الــرزين لترميهــا فــي حــوض واقعــي العبثــي، لتحملنــي رزء تلــك الفتــاة أو تكشف لها سري.

قــررت، إذا مــا توقفــت العجلــة، أن أتقــدم لهــا وأصــارحها بكــل مــا اختلج الفؤاد من لاعج وعاطفة. ترى، هل لمحت إعجابي بها؟ أهجس بها تعيش في عالم آخر، عالم يفيض بالأشواق والحنان، بعيد عن عالمي الرمادي. لذلك، كان علي أن أبقى بعيدًا عن المحيطين بي، لأنغمس في أتون عالمها مرة أخرى، متمسكًا بخيط الخيال الذي يرشدني لشواطئ شفتيها، لأتبع ضوء الفتنة عن قرب، لأركب صهوة جواد القلب، متبعًا صهيله الذي سيوصلني إلى قلعتها بشيء من الحذر والتبصر.

قطعنــا شــوطًا طــويلًا مــن الطريــق، دون أن أهجــس بالوقــت المهدور بيننا. التفت يمينًا وشمالًا، لأنسل من قبضة المحيطين بي، لأرجع باشتهاء لعالم الخيال الواسع. وجدت الكل منشغلًا بذاته، ربما غصوا بفتنتها، أو بعالم أزواجهم، أو بكأس النبيذ المتخمر في وجوههم.

لشــدة ولعــي بهــا، صــرت لا أعيــر أهميــة لمحيطــي، كــأني تجاوزت حدود الأدب والمنطق، لأنها في نظري زوجتي، ولي الحق في مغازلتها. لمحت في وجنتيها شعلة تضيء جدران الخيال، أحاطت الشفاه بومضة خافتة من ضوء قنديلها،

أضحت كثمرة ناضجة تخفق في الغصن، كقمر يسطع في الليل.

هي لا تختلف عن زوجتي سوى بلون البشرة ونحافة البدن، فلو وضعت شيئًا من الأساس على سمارها، لتكون هي بعينها. أشك بلون عينيها، وأظنها عدسات موضة.

عاد بي الخيال لواحة الغزل، لحالة التسامي والانصهار، للملاحة في ذلك الوجه المنبسط، متأملًا تلك الشفاه الغضة. حاولت أن أغمض عيني لأكون قريبًا منها، لأتحسس جلد الجاذبية، لأشعر برقة تلك الشفاه، لأغوص بفج الفتنة وحيدًا، كما تفعل النعامة حين تدفن رأسها في الرمل هربًا من العدو.

تخيلتها زوجتي، تتحرك أمامي، تبتسم لي، تضحك على قدري، على شدة ولعي بها، كأنها أدركت نجواي وهيامي بها. حتى أني شككت بأنها زوجتي الحقيقية، تتلاعب بمشاعري.

فتحت عيني للحظة، فوجدت وجلي وهوسي يسيح كرغاء زبد البحر على شواطئ شفتيها. ومع أني فتحت عيني، إلا أني لم أغادر سقف الخيال، بقيت أتأرجح بين وجه الفتاة ووجه حبيبتي كبندول الزمن، طارقا ذاتها بناقوس أشواقي، أغمض عيني تارة وأفتحها تارة أخرى، لأتأرجح بين الحقيقة والخيال، أغتني بسعادة آنية وأنا ألتقي زوجتي عبر مجسات التخاطر.

هجست بالذي يجلس بجانبي وقد انغمس بوحل الوسن، أسمع شخيره يطرق مسمعي، بينما كنت أهرب من عالم الوهم لعالم

الثبات. أرى الذي يشدني إليها هو خيط نور يخترق سدم الفراغ، يرسم قبلة حياة على تلك الشفاه.

ومع درجات التأني، كدت أصل شواطئ قلبها، أرى الضوء المشع في شفتيها يجذبني كفنار السفن، يزهق أرقي وهواني بلهفة. أضحت تلك الصورة تلتصق على صفائح الظن كجمرة عابثة، تلسع يقيني. انغمست بأنفاسها وبلون فتنتها، هجست بها تشاطرني الرأي والرغبة.

ما أن ولجت ذاتي بعالمها، حتى أدركت لحظة قطف درتها، تلاشت المسافات، صارت تقترب من الصفر، صرت أتحسس أنفاسها وطراوة بشرتها، أتشوق لها، ألهث خلف محاسنها، هجست بروحي ترتع بأساس بشرتها، تغدق بمفاتنها...

وقبل أن تميس شفتي زبد شفتها، وأنهي فصل تلك الدراما، دعس السائق على نابض الوقوف، اهتزت العجلة، وكدت أن اصطدم بالعجوز القابعة أمامي، ليعلن انتهاء مشوار الرحالة. ارتجت أعصابي مع ارتجاج العجلة، وهي تقف في محطتها الأخيرة...

صحوت من غفوتي، مشدوه البال، مشتت الفكر، عيني تدور في أروقة الفتاة، أيقنت أنها محمية بسر إلهي.

غادرت العجلة، تبعتها، كل أملي أن أفضي لها مشاعري. وقبل أن أربت على كتفها، أرتمت في حضن شاب وسيم كان ينتظرها في موقف الباص...

عندها توقفت عن شرودي، عدت خائبًا إلى عالمي الحقيقي، أجر خطى المرارة، متجهًا إلى عيادة الطبيب. أمشي، وتلك الصور تتقلب في ذهني، بشيء من الحسرة والألم، كشاشة تلفاز تعيد تسلسل الأحداث، من لحظة ركوبها العجلة، إلى لقائها بذلك الشاب الوسيم. أعيش أدوار اللحظات وأنا مأسور، عائد إلى ساحة الفراغ التي وددت أن أهرب منها.

البار

مشهد البار: حين يتسكع القلب في دروب الذاكرة

خرجت من العيادة كمن نجا من موتٍ مؤجل، لكن النجاة لم تكن خلاصًا، بل بداية تيهٍ جديد. نصائح الطبيب كانت واضحة: غيّر نمط حياتك، تحرّك، سافر، اقرأ، أحب، تنفّس... لكنني كنت كمن يجرّ جسده في الشوارع، لا يملك من أمره شيئًا سوى ذاكرة مثقوبة، وأفكار تتناسل من بعضها كأشباح الليل.

الشمس كانت ساطعة، والناس تمضي في الأسواق كأنهم يعرفون وجهتهم، أما أنا فكنت أجرّ خطواتي كمن يسير في حلمٍ ثقيل، لا يدري إلى أين، ولا لماذا. فجأة، طفت على سطح الذاكرة صورة حبيبتي، كوميضٍ خاطف، كضوءٍ مراهق تسلل من نافذة القلب، فاض بي الشوق، وتبعثر وجهي في ملامح كل امرأة مرّت بجانبي، كأن دخان الحنين يتصاعد من أنفاسي ويشي بجنوني.

في لحظة ضعف، وجدت نفسي أمام باب بارٍ صغير، لا يحمل من الفخامة شيئًا، لكنه بدا لي كملاذٍ مؤقت، ككهفٍ أختبئ فيه من ضجيج الذاكرة. دخلت وأنا أجرّ خيبتي، لا أبحث عن نشوة، بل عن نسيان. لم أكن أعرف تقاليد المكان والشرب والسكر، ولا أعراف السكارى، كل ما لديّ هو

صــورٌ مــن أفــلامٍ قديمــة وتجربــة يتيمــة لا تصــلح أن تكــون مرشدًا.

جلست في ركنٍ قصيّ، على كرسي خشبي ومنضدة زجاجية، تحت أضواء فلورسنتية خافتة، والجدران مكسوة بأقمشة قطيفة حمراء توحي بأجواء مسائية، كأنها تحاول أن تخلق وهمًا من الألفة. الصمت كان يصفّر في الأرجاء، والذاكرة تعجّ بالضياع.

جاءني النادل، وتحدث بلغة لم أفهمها، لكنني لفظت كلمتين: "ويسكي" و"بيرة". فهم المغزى، فالألم له لغة عالمية. عاد بعد دقائق، يحمل صينية صغيرة، عليها كأسٌ من الويسكي، وآخر من البيرة. وضعت يدي على الكأس، كمن يضع يده على جرحٍ قديم، وارتشفت أول قطرة، لا لأجل الطعم، بل لأجل أن أزيح عن كاهلي عناء اليوم، وأغسل بالسكر ما علق بالروح من تعب.

في تلك اللحظة، لم أكن سوى ظلٍّ يتسكع في دروب الأشواق، يبحث عن ذاته في زجاجة، عن خلاصٍ مؤقت، عن نسيانٍ لا يدوم. كنت أظن أنني أغيّر نمط حياتي كما نصح الطبيب، لكنني كنت أمارس نوعًا آخر من التغيير... تغيير عبثي، لكنه الوحيد الذي استطعت أن أحتمله.

كأس من الويسكي وقارورتي بيرة وصحن من النقل.

صرت أحتسي الشراب دون أن أبالي بمن حولي، كأنني أخلع عن نفسي عباءة الحذر، وأرتدي قناع اللامبالاة. بل وجدتني أقلد الجالسين في ارتشاف الكأس الأول، كأنني أتعلم طقوسهم في التوحد مع الكأس، في الانفصال عن العالم. ومع اندماجي في الشرب، هجستُ بوجود شرطي أو حارس للبار يراقبني، خُيّل إليَّ أنه واقف أمامي عند المدخل، يحدّق في سلوكي وتصرفاتي بقصدٍ مريب، كأنما يشك بي، ربما لأنني غريب، وربما لأنني لأول مرة أدخل هذا المكان.

تسللت إلى ذهني فكرة أنه جاء ليراقب عبثي، يبحث عن أسراري كمخبرٍ متخفٍ، ما أزعجني أنه يراقبني دون الآخرين. في وجهه علامات فارقة، كوجه مجرمٍ مشفّرٍ بمطواة، وجهٌ جهم، ناشف، خالٍ من الرحمة والمغفرة، فيه مجانة وعنف وصلافة. بقي واقفًا في مكانه كعمود نورٍ بوجهٍ شيطاني، لطوله الفارع وضخامته، ظننته شيطانًا يراقبني وحدي، يبحلق في وجهي، وفي عينيه نظرات شزراء وأنا أحتسي الخمرة.

بتُّ أنظر إليه بين الفينة والأخرى بوجس، أهجس بشعلة غضبٍ تنفر من منافذ وجهه، لا أدري لماذا يراقبني، ربما كان موجهًا من صاحب البار، فالسكيورتي عاملٌ بأجر لاستتباب الأمن، لكن بصراحة، انزعجت كثيرًا من وجوده، من تتبعه لتصرفاتي في مكانٍ يفترض أن أمارس فيه حريتي المطلقة، فما بالك إذا كان رجل أمن؟ أنا ما دخلت البار إلا

لأزيل هالة الكآبة من على الفكر والقلب، لأريح ذاتي، وأستلطف نفسيتي بكأسٍ من الجعة.

كان واقفًا في الظل، تنعكس على وجهه أشعة خافتة، متذبذبة، هجستُ به كلوحة جدارية ترتع بقبح الصفات، من تبجحٍ وجسارةٍ وغثاثة. ومن خلال ملاحظتي خلال فترة وجودي، بدا لي أنني الوحيد الذي يهتم بشأنه، صرت أراه بضني وضميري وخيالي، تراءى لي يتحرك في مكانه مع موجات فكري المضطرب، يراقب حركاتي، يسجل ملاحظاته، ربما لكوني جديدًا على المكان، وربما لأني غريب، فظن أنني لص أو مجرم، هكذا قرأت فكره.

هكذا خُيّل إليَّ ذلك الشرطي، دخل مع دخولي البار، ليقف في زاوية المدخل، يتجسس على سلوكي ومجانتي. في البداية شعرت بضيقٍ نفسي شديد، ثم مع الوقت تناسيت وجوده، وأقحمت ذاتي في تجربة التغيير التي وددت بها أن أفك كربي، فلم أجد طريقة أنجد بها نفسي المريضة من مخمصة التفكير السلبي الذي لازمني وماحقني، سوى أن ألجأ إلى البار الذي صادف وجوده أمامي. لكن وجود ذلك الشرطي نغّص رغبتي.

قررت أن أستمر في غيي، غير آبهٍ بذلك الشاخص أمامي، أهملت وجوده، وتناسيته، وصرت أحتسي الجعة دون مبالاة. كأسًا تلو كأس، حتى ثملت، حتى تراخت ساقاي، وخَلَّ الجسد تماسكه. حتى فضّ المخ شحنات الهم والغم، وتخلى عن كل

شاردة وواردة دخلت صفحاته. صارت الذاكرة ككويكبٍ يدور في فراغٍ لا يحتوي سوى صور زوجتي، وهي تبعث بإشارة استغاثة من بعيد.

أضحى فضاء مخيلتي معرضًا لصورها، كتلفاز يتقلب بصورها؛ خلتها تمشي معي، تضحك، تمازحني، تلاعبني. أدركتُ خيط الجنون، كأنه أرشدني إليها، حثني على مناداتها، لأخطفها من يد القدر. أجيلها من عبث تلك الوجوه العابسة من حولي، الذين لا أفقه لغتهم ولا أطيق سقمهم وشعوذتهم.

تماهت صورها بسدم الفراغ، بتُّ أبحث عنها في صحف الأمس. كنت أدرك أنني أبحث عن المستحيل، حيث غارت الأمور في لجم العقد، بسبب شساعة الفراغ المحيط بي. فراغ يؤطر فراغًا، داخلي وخارجي، والذهن مشتت، لا يطمر الذاكرة سوى اسمها، تلك التي تركت ندبًا من الشك في قدرتي على تخطي عجزي ونيل مرامي.

هكذا صرت أدور في متاهة من العبث والجنون، في ظل مراقبة الشرطي الماثل أمامي دون هوادة. أدور في معمعة لا أعرف كيف أخرج منها، لأقطع الشك باليقين، وأعيد ذاتي لأجواء ما قبل الهجرة، أو ما قبل السكر.

انهمكتُ بشيء لا أعرف له اسمًا، صورة غامضة لا أستطيع تحديد ملامحها، كضوءٍ يتراقص أمامي، كطائرٍ الستل العملاقٍ ينهش وجودي وتأريخي. صورة مختلقة من ألوان عبثية، لا تبرز فيها سوى خطوط شك داكنة، جعلت فكري

يضمحل في طياتها، ونقلتني من عمقٍ إلى عمقٍ أظل، بحثًا عن يقين، عن عالمٍ حرٍّ يأويني.

تشبثت بذلك الوهم مضطرًا، راغبًا في الخروج من قوس الشك المعتم، للعودة إلى عالمي الحقيقي. حسبت نفسي عائمًا في مدٍّ من الفراغ، كطائرة ورقية، أطير في أجواءٍ عاصفة، لا أدرك حقيقة قدري، ماضيًا بصمتٍ في سدم السكون، لا أسمع سوى همسٍ يأتي من خلف حاجزٍ خفي، يدعوني لاتباعه.

خرجت من البار متأبطًا صبري، متبعًا ظني خلف هاجس حبيبتي. اصطدمت بذلك الشرطي الذي هجست به يراقبني، تحسست جسده، فلم يكن سوى ستارة جانبية يعتليها مصباح فلورنسي خافت، تتحرك مع الريح، بدت لي كشبحٍ تحت الأضواء المتداخلة.

خرجت دون وعي، دون أن أدفع قيمة المشروبات. ما إن مسكت ذيل الشارع حتى تبعني النادل، ينادي بأعلى صوته، دون أن ألتفت إليه. لحق بي على أول الرصيف، صار يكلمني بلغة لا أفقهها، للغيلان الذي ركب أدراج مخي، ولعدم فهمي للغته.

كنت قد تركت عالمي الواقعي، أبحر في عالم المجون، مبتسمًا في وجهه، فاقدًا للوعي، لا أفقه ما يدور حولي. تحسست يده حين دسها في جيبي، أخرج محفظتي، سلت منها

مـا سـلت، ثـم أعادهـا الـى سـترتي، ثـم دلقنـي بيـده. لا أعـرف كـم كان معي من نقود، وكم سلب مقابل مستحقاته.

هـم بـائعو الجـور والـذمم، يسـتغلون مـن هـم علـى شـاكلتي، يسـرقون مـا تطالـه أيـديهم. لـم أدرك ذاتـي إلا بعـد عـودتي للمنـزل، لا أدري كيـف عـدت، وجـدت المحفظـة تصـفر، خاليـة إلا مـن هـويتي وبعـض اليوروهـات. ربمـا أخـذ أضـعاف القيمـة، فهـم يسـتغلون المتعـاطين، ومـن حقهـم ذلـك، فمـن الـذي أجبـرهم على صرف تلك المبالغ في المباغي والبارات؟

أيكـون الإنسـان إنسـانًا وهـو يبحـث عمّـا يجعلـه حيوانًـا؟ أيكـون ذا عقلٍ وهـو يشـتري وجـع رأسـه ودوختـه بالمـادة التـي يعـيش بهـا؟ ومـا جـدوى أن يسـكر الفـرد ويرمـي مصـروفه فـي قنـانٍ تفقـده كرامته وشخصيته ومذهبه؟

تراخـت أعضـاء جسـدي، صـرت أمشـي فـي الشـارع دون يقـين، أهجـس بسـاقي تطيـر فـوق الرصـيف كغزالـة تهـزع بحقـول خضـراء. الأرض تهتـز تحـت قـدمي، شـعرت بنشـوة مطليـة بالسخط، وهوانٍ يركبني بشيء من الحسرة.

وأنـا مـاضٍ فـي طريقـي خلـف هـاجس صـوتٍ يطنـب أذنـي، وجـدت ذاتـي تنحـدر خلـف فتـاة آيـة فـي الجمـال، وكـأنّ الصـوت آتٍ مـن لـدنها. كـان اليـأس يـدفعني لاحتضـان حبيبتـي قبـل أن أحتضـر، فتبعـت خطواتهـا، هجسـت بـذاتي مـأمورة مـن شـيطانٍ تلبسني وأغواني.

بـدت لـي بـألق زوجتـي، ترتـدي قميصًـا مقـورًا مـن الظهـر، كاشـفة فتنـة المـتن. ظننتهـا زوجتـي، ميزتهـا مـن الخـال علـى كتفها، ومن طراوة قدّها. تبعتها، ففاض بي الشبق لمعانقتها.

تبعتهـا لمسـافة لا أعلـم مـداها، كانـت تمشـي بخطـوات أسـرع، كأنهـا تهـرب منـي. تخيلتهـا هكـذا، كأنهـا هجسـت بريبـة، فتخطتنـي بسـرعة. كنـت أمشـي بسـاقين وكـأنني أمشـي بعشـرة، أهجس بذاتي تطير في الهواء، لكنها سبقتني.

أهفو خلفها بخطوات متأرجحة، حتى أوقفها عارض عبور الشارع. انتظرت الإشارة، أدركتها وأنا مجهد، العرق يتفصد جبيني، ترطب تلبيب القميص، ربت على كتفها وقلت:

ـــ ما بك يا صدف؟ لِمَ تهربين مني؟ ألستِ زوجك؟

شنفتني بعينٍ شزرة، ثم صفعتني بكفها وقالت بكبرياء:

ـــ ألا تكف رعونة أيها المراهق؟ امشِ من هنا يا لغوب، يا مجنون، يا سكران، يا تافه...

بقيـت صـاغرًا، أتمعـن فـي ملامحهـا بعينـين غضـنتين، دون أن أنـبس بشـفة. صـفعتها أزاحـت غشـاء الـوهم عـن عينـي، أعـادتني إلـى عـالمي الـواقعي. اكتشـفت أنهـا ليسـت زوجتـي، ولا تشـبهها، كل الخيال تبخر، تماها كدخان في مهب الريح.

بصـفعتها عـدت إلـى رشـدي، صـرت أرى الأمـور علـى حقيقتهـا، الصـورة تتضـح رويـدًا رويـدًا، كعدسـة كـاميرا اختـل زومهـا.

تبين أنها عجوز، شمطاء، تتشابك خطوط السن في وجهها، ساقاها كعكازتين، ترتدي معطفًا وشالًا، لا قميصًا مقورًا.

ما أزعجني عباراتها: مراهق، لغوب، مجنون، سكران، تافه... كانت تفقه العربية، ربما من أصول عربية. لا أدري لِمَ نعتتني بذلك، هل لأني كنت ثمِلًا؟ أم فعلاً كنت مجنونًا وتافهًا في نظر الآخرين؟

أحيانًا لا يدرك الإنسان انحداره إلا حين يصدم بموقفٍ مغاير، يرتد إليه وعيه، ويلتمس الحقيقة التي لا يراها. أحسب نفسي كانت تائهة، فلم أتحسس الموقف إلا لحظة الصفعة.

وقفت على دكة الصمت، أدقق في وجهها بعد أن أوقفت غيي. رغم أن يدها كانت ترتجف، إلا أن صفعتها كانت ثقيلة، أوقفت نزف شرودي، نقلتني من الخيال إلى الواقع.

أخذت زمنًا وأنا شارد الذهن، ربما أكثر من حقه، وحينها كانت قد غادرت، ابتعدت

باقة ورد

ورد... زهرة لم تُقطف

تعرفتُ على ورد، فتاة جامعية غاية في الرقة والجمال، يفيض حضورها أناقة ونضارة، فتنتني بها كما يُفتن المرء بتويج الورد حين يزهر. جمالها يتوزع على قوامها كضوء ربيعي، يلامس الروح قبل العين.

مع اشتداد اللهفة والهيام، وجدت نفسي أعزف على أوتار الغرام، أراها في كل شيء أمامي: في كأسي، في وجداني، في مرآتي. أفكر بها بشكل مبالغ، أذكرها في كل مناسبة، بل حتى دون مناسبة. مشاعرنا متناغمة، أرواحنا متواصلة، تستوعب ما أريده دون أن أتكلم، وكأنها مرآة لذاتي.

في عيد ميلادها، أردت مفاجأتها بباقة ورد تليق بها، تفرحها بمرور إحدى وعشرين سنة على عمرها الفتي. مناسبة حميمة تقترن فيها المشاعر بفيض الأشواق، خاصة وقد نضجت بما يكفي لتختار من يقدرها ويحترمها ويحبها.

غدت أكثر رقة ونضوجًا، تبحث عني، تستمع لي، تحاورني في كل المجالات، تزيدني شوقًا بها. أردت أن أتحفها بمشاعري، لأزيد أواصر المحبة، وأستمتع معها بيوم جميل. كانت تختلف عني انها من برج الحمل، برج المنافسة والطاقة والحرية وتقلب المزاج، بينما أنا من برج الثور، الترابي الثابت. هذا التناقض أقلقني، خشيت أن يوقعني في مطبات

الشك، فكنت أراقب تأثيري عليها وتأثيرها عليّ، محاولًا أن أضع النقاط على الحروف.

كثيرًا ما كنت أسير معها بصمت، متخفيًا تحت وهج الحيرة، كي لا أثير حفيظتها. أراها كطفلة تلهو بعالمي، مدللة، كوردة ربيعية تغشاها النزاكة. كنت أتلافى العناد والمجادلة، وأبتعد عن محطات الجنون التي تربك أهواءها.

في يوم عيد ميلادها، اتجهت إلى محل بيع الورد لأقتني باقة تليق بالمناسبة. دعوت صديقي صفاء، المقرب لي والمطلع على تفاصيل علاقتي بورْد، وقد أبلغته بنيتي الزواج منها، فوجدت في المناسبة فرصة لأشركه في فرحي بها.

دخلت المحل، فاستقبلتني فتاة تبيع الورد، تفوق الورود رقة وهيافة، تحمل من نزق العذوبة ما يوصف بالسحر. بأناقتها وجمالها وحسن إدارتها للمحل، غطت على مباهج الورد. لا تقل فتنة عن ورد، سوى أنها تختلف عنها بلون العيون؛ ورد عيناها سوداوان، أما بائعة الورد فعيونها زرقاء مغنجة.

قلت لنفسي: ليس من المعقول أن أختار الباقة بنفسي، وهذه الفاتنة ذات اختصاص، تعمل وتنسق الورد بذوق وخبرة. فاستعنت بها، وقلت لها:

- مساء الخير
- مساء النور

- مـا شـاء الله، فـي عـين الحسـود عـود. تبـارك الـرحمن، الرقـة والجمـال ترتـدك مـن رأسـك لأخمـص قـدميك، وأنت أهل لها.
- شكراً على إطرائك، تفضل، هل من خدمة؟
- نعـم، أود أن تـوظبي لـي باقـة ورد جميلـة بمناسـبة عيـد مـيلاد فتـاة، وهـي بعمـرك وعلـى شـاكلتك مـن شـياكة وذوق وأناقة، وأظن ذوقك سيعجبها.
- علـى الرحـب والسـعة، تفضـل بـالجلوس دقـائق حتـى أجهز الطلبية.

وظبـت لـي باقـة مـن أجمـل مـا يكـون: فيهـا لـون الخـردل والزعفـران واللافنـدر والياسـمين والجـوري، كُـوّرت بـورق سـليفون لمـاع، وربطتهـا بشـريط وردي يليـق بالمناسـبة. فيمـا اقتنى صفاء وردة توليب واحدة ليهديها لورد.

اتجهنـا إلـى دارهـا، حيـث الاحتفـال البسـيط مـع العائلـة والأصـدقاء وزمـلاء الدراسـة. طرقـت البـاب، وكأنهـا كانـت تنتظرنـي علـى أحـر مـن الجمـر. اسـتقبلتني بوجـه مشـرق، قـدمت لها الورد مهنئًا:

– كـل عـام وأنـت بخيـر، وكـل عـام وأنـت حبيبتـي يـا أجمـل فتـاة في الدنيا.

– شكراً لك على الذوق والإحساس، تفضل.

أخـذتني بالأحضــان، ثـم رحبـت بصـفاء. وبعـد لحظـات، سـألتني على جنب بابتسامة لطيفة فيها استغراب:

- حبيبـي، أنـا أعـرف ذوقك جيدًا، منـذ متـى ارتقـى إلـى هـذه الدرجة من الرقة؟ من وظب لك هذه الباقة؟
- بائعـــة الـــورد ، ولأن ذوق المـــرأة أرقـــى مـــن الرجـــل، استعنت بها.
- شكراً على الصراحة.
- ولكن كيف عرفتِ؟
- شممت بها رائحة أنثى، هل نسيت أني أنثى؟
- المهم راقت لك؟
- أكيد، المهم حضورك.

دخلنـــا، شـــربنا العصـــائر، تـــذوقنا الكيـــك، وانشـــغلنا بـــالرقص والغنـاء حتـى سـاعة متـأخرة. لكننـي لاحظـت تغيـرًا فـي مزاجهـا، بـرودًا فـي تعاملهـا معـي، لـم تبتسـم كثيـرًا، ولـم ترافقنـي كمـا كنـت أتأمـل. انـدمجت مـع الـزملاء بروحيـة مختلفـة، حتـى أننـي وددت أن أغادر، لولا خجلي ومكانتي في قلبها وفي نظر رفاقي.

بعد انتهاء الاحتفال، عدت إلى سكني، فتلقيت رسالة منها:

أشـكرك علـى باقـة الـورد الجميلـة، لكنهـا ليسـت مـن ذوقـك، بـل مـن ذوق بائعـة الـورد. هـي التـي قيّمتنـي، لا أنـت. لـذا أرجـو منـك أن تمسـح رقمـي، ولا تحـاول أن تكلمنـي. لـن أرضـى أن أكـون حبيبـة مـن يسـتعين بـذوق غيـره ليقيمنـي. سـأعتبر مـا كـان بيننـا

مجـرد ذكـرى وتجربـة. وعسـى أن تكرهـوا شـيئًا وهـو خيـر لكـم. مع السلامة. – ورد

كـأنني طُعنـت بنصـل خنجرهـا فـي الظهـر. تـرى، لـم هـذا التجنـي؟ وهـل كـل الفتيـات بهـذا المـزاج؟ هـل كـان لـي فـي قلبهـا وخزة تذكرها بي؟ ها أنا قد خسرت ما كنت أود قطفه.

ومـع ذلـك، بقيـت تـدور فـي فلـك مخيلتـي كـدورة القمـر حـول الأرض، تَغيـر علـى خـواطري مـع كـل مسـاء، وتـزف الأرق لأحـداقي، تقلـب مضـجعي فـي هجـوعي، حتـى ينفـد كـأس الـذاكرة من ذلك العبق.

وبعـد أشـهر، أعلنـت خطبتهـا علـى صـفاء، الـذي كنـت أحسـبه صديق لا منافس، والذي دعوته بنفسي لحفلة عيد ميلادها.

نعـم، حزنـت، لكننـي قويـت عزيمتـي، وبـتّ أكثـر حرصًـا. ويبقـى سـر مـزاج النسـاء لغـزًا عنـد الرجـال. فمهمـا فعلـت مـن إحسـان، لـن تستوعب حجم الغدر الذي قد يُرسم عكس غايتك.....

كنتُ أحسبه لي خِلًّا

ما إن صحوتُ، حتى عني تخلّى

ليتَ الوفاءَ مثلَ الهوى

يزرعُ في الأنفاسِ وصْلًا

فاعلمْ يا سليلَ العشقِ

يا من كانتْ لهُ جوارحي ظلًّا

الأهواءُ لا ترتقي بالنُّهى

دونَ هيامٍ، وقلبٍ، وعقلًا

لسعة نحلة

مـن النظـرة الأولـى التـي تـبجّح بملامحهـا، أسـرت قلبـه. رأى فيهـا شـعلة الأنوثـة تتقد فـي مفاتنهـا، وهـي تقـف أمامـه كصـقرٍ فـي وسـط طـابور المـراجعين، تنتظـر دورهـا لإتمـام معاملتهـا. منـذ تلـك اللحظـة، خالجتـه رعشـةٌ هـزّت فـؤاده، كبركـانٍ يوشـك أن ينفجر. شفق الحب بدأ يخفق في داخله، ينبض بالحيوية والهمة.

كـان يفصـل بينـه وبينهـا عـددٌ مـن المـراجعين، والوقـت عصـيب، إذ تجـاوزت السـاعة الواحـدة ظهـرًا. صـار يبـذل قصـارى جهـده لتسـليك المعـاملات، أمـلاً أن تبلـغ دورهـا قبـل انتهـاء الـدوام، ليتمكن من إنجاز معاملتها، ويوثق صلته بعجلة قدرها.

بجبـروت قامتهـا ومفـاتن وجههـا الأخّـاذ، سـحرته. رآهـا قمـرًا يضـيء ليلـه، انتهكـت آفـاق فكـره، واسـتباحت صـمته ومسـاءه بسـحر السـمرة الذائبـة فـي غـرين بشـرتها. سـلبته رشـده، وألبسـته ثوب الرزانة والعفة والطيبة والخجل، فقط بمعاني ملامحها.

أغـارت عليـه كالنحلـة، لسـعته بفـيض ألقهـا، أطنبـت أذنيـه برفيـف أجنحتهـا، وجذبتـه إلـى عالمهـا دون سـواها مـن الفتيـات العـاملات فـي البنـك. صـار يتبـع سـحرها دون إرادة، يحـوك مـن لحظتهـا الأولى ستائر عشق لعينيه، ويبرم شغف القلب بهيافة الفكر.

وقوفها المنفرد في الطابور لفت نظره. وجودها جاء بعفوية، ببراءة، لم تقصد إثارة اهتمامه، ولم تفكر بشخصه قط. الصدفة والحاجة جعلتها تركن في ذلك المكان.

لكن بجاحة نظراته أشعرتها باهتمامه، فعزفت لحن الصمت على أوتار فكره، وركبت موجة الغرور. فسعى خلف شاطئها بتوسلٍ وحبور، هزّت كيانه دون أن تعي، ودون أن تعني.

لم يصبر على هلعه، انحدر خلف غبار العصف دون إرادة، يحاول التشبث بقارب النجاة المنحدر نحو شاطئ الفتنة الماثلة أمامه كالطود، متحسّبًا من التيارات الجارفة، ومن لصلصلة الأعين المحيطة بها.

حلّت بعالمه كاللحظة المارقة، كشهابٍ أنار سماءه. اهتزت أساريره، والتفت إليها بعفوية، غير متحكم بإرادته. صار ملمًّا بأمرها، مدقّقًا في تفاصيل قامتها، برشاقتها وحسن قدّها، محاولًا تفادي نظرات المراجعين الآخرين.

جردته من هدوئه، قلبت موازين كيانه، وصارت نظراته للمراجعين تأففًا بسبب طول الطابور، تختلف عمّا كانت عليه قبل أن يشعر بوجودها. مضت سهام عينيه تخترق الصفوف كسهام ودٍّ وتخاطر، اختلقت فوضى في خاطرها، لتميّزها عن نظرات المتحلقين حول فسيفساء طلتها.

صار لا يرى في الوجوه المصطفة أمامه سوى صورة واحدة، جذبت واقعه. ما إن شاهد ملامحها، حتى خرّ ساجدًا

إلـى أذنيـه، قيدتـه، ومحـت مـن ذهنـه عـالم النسـوة العـابرات علـى ذاكـرة الماضـي. ألغـت مـن حياتـه كـل البروتوكـولات والمنـاهج السابقة التي كان قد التزم بها.

تلـك الرقطـاء، الماجنـة، عبثـت بـروتين عملـه، جردتـه مـن عبوديـة السـياق، ونقلتـه مـن حالـة الرتابـة إلـى عـالم الضـياع والمجانـة، إلـى مسـرح الخيـال والرجـاء، دون أن يـتحكم بإرادتـه. نقلتـه إلـى عـالم التجـرد والسـكون، إلـى وهـدة الحيـرة والولـه والتبجّح، إلى فكرة الاختبار والاختيار والاستقرار.

صـار يتجـوّل بخيالـه فـي أروقـة تلـك المبـاهج كطيـرٍ مهـاجر، تخطّـى بنظراتـه الحـادة حـدود المنطـق والوظيفـة. تميّزهـا غيـر المعهـود جعلـه يتخطّـى الوجـوه التـي عرفهـا مـن قبـل، وتلـك المتواجدة في محيط عمله.

مـا شـجّعه علـى المجازفـة، أنـه وجـد فـي لحـاظ عينيهـا الواسـعتين فسـحة أمـل تعينـه علـى قـدره المترهّـل، لإدراك فـردوس حلمـه. وجـد فـي قامتهـا مجـالًا رحبًـا ينطلـق منـه لعـالم الخيـال الواسـع. تلاقـت مراكبـه، واضـطرب قلبـه، وظـنّ فـي ذوائـب شـعرها المتفحم دليـل طيفـه، وفـي نـور وجههـا الوضـاء مـرآة سـعده. بـات يشـهق فكـره فـي عـالم عـديم اللـون مـن المجانـة والهـوس والصبابة.

أربكتـه بنظـرة عـابرة، بريئـة مـن عينيهـا الملظّتـين، مـا إن اسـتقرت علـى أوشـحة لاحظيـه، حتـى هجـس بلسـعة تغـزو الفـؤاد.

لمس في تلك النظرة عصف تجرد، جردته من كبريائه، وجعلته يدور كقشة في دوامة العصف التي افتعلتها داخله.

لمست ارتباكه، تحسّست ضعفه واضطرابه، تراشقت العيون، وتشابكت خيوط الظنون. تعشّقت الرغبة بجدلية التحدي، وصارت مسامير وده تطرق جدران شموخها، ليعلّق سترة أحلامه السادرة عليها، عسى أن تجلب انتباهها، أن تضطرب مجسات خواطرها.

هجس بعصف سحرها من خلال الإضاءة المشاطة في قوامها الرشيق، وفي ذوائب الفتنة المنفلتة من ملامح وجهها، من اللمعة الغافية فوق سحر البشرة، والرقة المتجولة في ثنايا الشفة. كل شيء فيها مبهج، متوافق مع لآلئ عينيها.

في وقفتها، كانت كيمامةٍ تهجس بالخطر، تئن من خدر القدمين وخزر أعين الصقور المتحلّقة بها. وكان في كرسيه يسنّ صبره، حتى تأيّن القلب بشرارة فتنتها. ما أن استسلمتْ جوارحه؛ حتى أعتمل على تسليك معاملات زبائنه بعجالة غير معهودة، وبكيفية ما سرهم بها، أنها الرحمة العاطفية.

ما أن أدركت شباكه حتى وقف على قدميه مرحبا بها، كان مبهورا بفتنتها، مرتبكا بفكره ولسانه، ببحة صوته الخافتة أشار إليها بالجلوس، ليستمع لطلبها ويستمتع بحضورها وأناقتها وجمالها وحسن صوتها.

كانت قد استشعرت اهتمامه وارتباكه، ذلك الالتباس الذي شاب أداءه في العمل. قرأت في نظراته إليها ما لم تقرأه في نظراته إلى المراجعين الذين سبقوها. تلعثمه في الحديث كشف لها عن عقدة خفية، افتقد شيئًا من التركيز والتوازن في حضرتها، فهجست بشتات فكره ومسحة خجل تسللت إلى ملامحه.

باهتمامه المتزايد، بدا وكأنه طرق نافذة روحها قبل أن يطرق باب قلبها. أشعرها بإعجابه، بل تجاوز البروتوكولات المعتادة في التعامل، مستهلًا حديثه بعبارات ترحيب ملونة، وكأنه أراد أن يلفت نظرها عمدًا.

ورغم ذلك، لم تكن المسألة غريبة عليها؛ فهو ليس أول من يقع أسير فتنتها. الأستاذ فؤاد، مثلًا، حاول مرارًا فك شفرة قلبها دون أن يفلح، لأسباب تخصها وحدها. ربما لم يرتقِ إلى مستوى الحلم والأناقة التي رسمتها في مخيلتها.

أما "ميثاق المتوكل"- كما كُتب اسمه بخط النسخ العريض على لوحته التعريفية فوق مكتبه، فقد بدا مختلفًا. ملامحه، جاذبيته، أناقته، وشفافيته، كلها ميزته عن الأستاذ فؤاد وعن كل من داروا حولها سابقًا.

وبقي سؤال يدور في خلدها: لماذا يبدو موظفو البنوك أكثر أناقة وشفافية من المعلمين؟ هل يعود ذلك لشروط التعيين؟ أم للتربية؟ أم لاختلاف طبيعة العمل؟... في الواقع، ينشغل المعلم بالفكرة أكثر من اهتمامه بالأناقة التي تقيّمه. على النقيض،

موظف البنك يعتبر أناقته بوابة عبوره إلى المجتمع، وواجهة مؤسسته في استقطاب الزبائن. المعلم يتعامل مع فئة المراهقين، ومع مرور الزمن يتلاشى الحاجز بينه وبين تلاميذه، فيضطر للتنازل عن موقعه وكبريائه، ويتطبع بسلوكياتهم. وهكذا، يقع فريسة لفكرة التجريد، التي تمنح الأولوية للمادة المطروحة على حساب الكاريزما والمظهر الخارجي، حتى تنصهر شخصيته في شخصية التلميذ، فينسى ذاته وقيافته وقدره.

أما موظف البنك، فيتعامل مع طبقات متعددة من المجتمع، وينغمس في روتين المقابلات والبروتوكولات الراقية. يكتسب ثقافته من منابع متنوعة، ويحرص على مواكبة العصر، وينشئ صداقات وعلاقات متعددة، تجعله يعتني بمظهره باستمرار، خاصة إذا علمنا أن نصف زبائنه من النساء.

وفي خضم هذه الأفكار، قدمت أوراق معاملتها له، قائلة:...

- هل هذه الأوراق هي المطلوبة، أم لازال فيها نقصا ما؟ أنا زبونة جديدة أود فتح حساب بنكي عندكم، وارجو أن توضح لي تعليمات البنك وطرق السحب والإيداع، وتفعيل كارت البنك.
- هل أنت حديثة التعيين في دائرتك أم نقلت حسابك من بنك آخر إلى بنكنا؟
- لالا.. أنا تعيين جديد، تعينت منذ شهرين بصفة مدرسة.

- أهـلا وسـهلا، تفضـلي أجلسـي.. (صـار يقـرأ فـي أوراقهـا، سـهى محمد سـعيد، مدرسـة مـادة الإنجليزيـة، منسبة إلى وزارة التربية..
- يا سهى: كم تودين أن تضعي من مبالغ في حسابك؟
- كم علي أن أضع ليست لدي فكرة عن الموضوع؟
- أي مبلـغ يعجبـك ولكـن علـى أن لا يقـل عـن مـا قيمتـه يساوي مثقال ذهب.
- حسنا دعنا نبتدأ بما قيمته مثقال ذهب = 30 دولار.
- وهـو كـذلك، عليـك أن تـوقعي علـى هـذه الشاشـة التـي أمامـك بـالقلم الموضـع جانبهـا، وأن تختـاري فـي هـذه الخانـة أربعـة أرقـام علـى أن تكـون سـرية تحفظيهـا عـن ظهـر قلـب، لأنهـا سـتكون مفـاتيح سـحبك وإيـداعك للأمـوال، دعيهـا سـرية، لا يطلـع عليهـا أحـدا غيـرك، سجليها هنا.
- حسنا.. 0000، انتهيت.
- تفضـلي: هـذا الظـرف المغلـق، مكتـوب فـي داخلـه رقـم حسـابكِ البنكـي وكـارت البنـك. يمكنـك أن تسـتخدميه مـن يـوم غـد، حيـث يفعـل الكـارت ورقـم الحسـاب البنكـي بعـد أن تمر عليه فترة أربعة وعشرون ساعة.
- شكرا لك وعلى حسن تعاونك.
- هـل لـي أن أراك ثانيـة..(قالهـا بصـوت همـيم فيـه شـيء من التوسل ما يصعب أن يرد بجفاء).
- إذا أراد الله ذلك.
- مع السلامة.

ظل فكره مشغولًا بها، يتأمل عودتها، يترقب أن تبادله الشعور، وقد شعر بأنها جوهرة لا يُفرّط بها. في المقابل، هجست فيه شابًا متكاملًا، لا تنقصه وسامة ولا ذكاء. ملامحه الناعمة، ولحيته الخفيفة المرتبة، وأناقة هندامه، كلها كانت كفيلة بأن تستحوذ على قلب أي فتاة

حين تحدثت إليه، التمست نعومة أدبه، ورخاء صوته الذي تسلل إلى ألواح مشاعرها، فهزّ أحاسيسها برقة نبراته. هجست بتوسلاته المغلفة بصوته، وترحيبه المبالغ فيه، وخدمته وتقديره لها، كلها التصقت في شريحة ذاكرتها، حتى شعرت بتنهدات جوارحها تهتز وهي تتأمل لقاءً جديدًا في أعماقها.

بعد مغادرتها، تركت في ذهنه صورة متوهجة، كأنها رسالة خفية تحثه على تتبع أخبارها وخطواتها. راودته فكرة أن يواجهها، أو أن يزورها في مدرستها، لكنه تراجع؛ فهي حديثة العهد هناك، وأي تصرف غير محسوب قد ينعكس سلبًا على سمعتها.

لكنها لم تخيّب ظنه. عادت إليه بعد يومين، لتقف أمامه مرة أخرى في ذات الطابور، تتأمله من بعيد وهو منشغل بأوراق مراجعيه. وما إن لمح وجهها، حتى ارتجّت أساريره، وما إن التقت عيناه بعينيها المصبوبتين عليه، حتى صعقته المفاجأة. لم يشأ أن يدعها تنتظر أو تنشغل بالتفكير، فنهض من مكانه مناديًا باسمها، متجاوزًا ترتيب الدور، وكأن حضورها ألغى كل البروتوكولات....

- يـا سـهى... تفضـلي، مـا خطبـك؟ لـم أنـت واقفـة فـي الطابور
- أستاذ الكارت لم يفعل كما أخبرتني.
- كيف؟ مستحيل!!! أجلسي لنرى السبب.

ومـا أن فـتح صـفحتها وكشـف عـن الخلـل فـي الحاسـب الآلـي؛ حتـى صـار يبتسـم ويضـحك بابتسـامة عريضـة شـرخت وجهـه، هههههههههه،

- ها يا استاذ؛ ما خطبك؟ لم تضحك؟

كـان قـد وجـد ذاتـه قـد نسـيت أن تفعـل الكـارت، فـأدار وجهـه إلـى وجهها مبتسما.. قائلا لها بصوت منخفض:..

- والله أنـت السـبب.. والله يـا سـهى أنـت السـبب (مؤشـرا بسبابته).
- لِمَ...لمْ أفهم؟ ماذا فعلت؟
- لقـد شـغلتِ فكـري بفتنتـك فنسـيتُ أن أرسـل معاملتـك لجهـة الإصـدار وتفعيـل الكـارت. أنـت يـا سـهى جميلـة جدا، وأنا أتمنى أن ....
- أن ماذا؟....
- ممكـن تسـمحي لـي بالاتصـال بـك بعـد أن أنهـي عملـي، رقم هاتفك موجود عندي على الكومبيوتر.
- لا ضير في ذلك.
- شكرا لكِ، سأتصل بك في تمام الثالثة عصرا.
- مع السلامة.

قالتها وهي خجلة في أعماقها، وفرحة في عالمها الداخلي، هجست بندى الحياء وقد غدا عطرًا يفوح من وجهها، أضحت متورّدة اللون، كأنها أفصحت له عن مخزون إعجابٍ حرثه في قلبها بصمت.

أما هو، فلم يصدق استجابتها، أصيب بتشنج الفرح وانبهار اللحظة، كأن السعادة التي غمرتها تسللت إلى قلبه، فعصف به النشوة. كاد ينسى عمله، لولا أن استعاد رشده برشفة من قدح ماءٍ موضوع على طاولته، وكأنها كانت محاولة يائسة للعودة إلى الواقع.

لا يدري كم من الزمن مر، وكم بقي يلوذ بين لحظة فراقها وحلول ساعة مهاتفتها. كانت فترة عصرٍ زمني، مشبعة بالقلق والتشنج والحيرة، مفعمة بالتهيؤ والاستعداد. بات الوقت يجري كجري السلحفاة، وعاش تلك اللحظات بين شوق وتأمل وخيال، حتى غدت المشاعر تتلظى على أثافي الصبر.

وما إن دنت اللحظة الحاسمة، حتى كبس على اسمها، لتنطلق الإشارة محمّلة بفيض من العواطف الجياشة نحو وهدة هاتفها.

وما إن رأت هاتفها يصرخ بحمله الثقيل، حتى تناولته بحنين ورأفة، ليقبل أسيل خدها. عرفت الصوت من ارتباك نبراته، ومن الرقم الغريب الذي لم تألفه، حينها أدركت القصد، وعرفت الطارق... ومنذ تلك اللحظة، ابتدأ بينهما المشوار.

مجرد لقاء

في ظهيرة متأخرة، حين تجاوز الوقت موعد اللقاء بنصف ساعة، كنت على وشك مغادرة حدود المعهد، حين لمحته يقترب، متكئًا على دراجته التي بدت لي كأنها تشكو ثقل جسده، تئن تحت وطأة وزنه، كحمار أنهكته الأسفار. لم يكن كما وصفته لي سارة؛ خيل إلي أنه سيكون أقصر طولا وأكبر سنًا، لكن الواقع فاجأني بطوله الفارع وبساطته المدهشة.

ما إن أشارت له سارة نحوي، حتى تقدم بخطى واثقة، وقال بابتسامة عريضة:

— أهلاً وسهلاً، أنا سعيد بلقائك... أدعى ديفد.

— وأنا فارس... كنت أترقبك بشغف، تخيلتك أقصر وأكبر... لكنك طويل جدًا، هههه.

— أمي ولدتني هكذا، مترين وعشرين سنتيمترًا، هههه.

— ما شاء الله، أطول مني بنصف متر!

ضحكنا، وتلاشت رهبة اللقاء. دعاني إلى غرفته، حيث أراد أن يطرح بعض الأسئلة حول مشروع مجلة جديدة. وبينما كان يتحدث، شعرت أن في داخله شغفًا دفينًا، رغبة لا تُقال، كأن شيئًا ما يقوده نحوي، يستنطقني، يستكشف ما أود أن أبلغه.

كـان مفعمًـا بالحيويـة، يطـرح أفكـاره بانسـيابية، وكـأن وراء جسـده الضـخم شخصـية أخـرى، خفيـة، رقيقـة، تـتحكم فـي إرادتـه وتوجهـه. شـعرت أننـي لا أواجـه ديفـد واحـدًا، بـل اثنـين: الظـاهر والمستتر، وكأنني أتحاور مع قناع يخبئ خلفه روحًا شفافة.

تسـاءلت فـي داخلـي: هـل نحـن، كبشـر، مركبـون مـن شخصـيات متعـددة؟ هـل نرتـدي أدوارًا حسـب الظـروف؟ تركـت نفسـي تسـاير تلـك القطـة الأليفـة التـي تسـكنني، تلـك التـي إن خالفتهـا، تثـب بوحشـية فـي وجهـي. تركتـه يسـرح بفكـره، وأنـا أتبعـه، كـأنني أقرأه بين السطور، بين النظرات، بين الصمت.

ربمـا كانـت تلـك القطـة قـد شـعرت بوجـوده، فـودت أن تهضـم معانيـه، أن تفسـر لغتـه، أن ترتقـي بـي إلـى ضـفة النـور التـي تلـوح فـي خلـده. ربمـا كـل مـا قالـه كـان فصـلًا مـن خيـال، لكنـه خيـالٌ يلامس الحقيقة، يوقظها، يلونها.

حـين بـدأت أشـرح لـه تفاصـيل المجلـة، شـعرت أن وجهـه يطفـح بفـرائص الغايـة، كأنـه يـود أن يمهـد لـي الطريـق، أن يزيـل الغبـار عـن فكرتـي، لتلمـع فـي حـدقات عينيـه. ومـع كـل كلمـة، كنـت أقـرأ توافق ألوان الحلم، وهو لا يزال طيفًا يدور في فلك الذهن.

وفـي لحظـة صـفاء، تشـظى الزجـاج الممـوه بيننـا، وطلّـت الفكـرة بلـون الغسـق، زاحفـة علـى حـدود الشـك، حتـى بـدا لـي أننـي أقـرأه كمـا يقرأنـي. قبـل أن نغـادر، بصـمت لـه بالغـد، بالعمـل، باللقـاء المتجدد، وبالانتماء لفكرة المجلة.

ابتسم، وكانت ابتسامته كخاتمة لقصيدة، رغبة في تكرار اللقاء، في الاستمرار. كان اللقاء بيننا كحجر رُمي في بركة ساكنة، فحرّك موجات الأمل، وأيقظ ستائر الحياة.

وبعد أسبوعين، صدرت أول نسخة من مجلة "اللقاء"، ونالت استحسان الجمهور... كانت ثمرة ذلك الحوار، وتلك القطة التي لم تثب، بل استقرت.....

عواصف الشتاء

آلت الظروف أن أترك زوجتي خلفي، تحت سقف ظرف موارب، حلّ بنا على حين غفلة، ونحن نبحث عن صيغة استقرار بديلة لحالة الوطن المتوعكة تحت وطأة الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق. كنت في عنفوان شوقي لحبيبتي، والرغبة الكامنة في ذاتي للعودة إلى ربوع الوطن، لكني سهوت عن تفاصيل العقد التي كبّلتني بقيود الغربة، وغرزت العناء في كل مرافقي.

كنت أحاول تسليك الوقت بالعبث الذي ينسيني الهم، أغرتني أمور جمة، جعلت حالة الشوق تخفق في ثنايا الفكرة، في مواجهة الفشل والإخفاق والخيبة والرعونة التي تعلقت بقدري كرغاء لا مفر منه. سلبتني عزيمتي، جعلتني أرتع بثنايا الصمت والسكوت دون حراك.

في تلك الحالة المتقلبة من المزاج، والمرهفة والغير المستقرة، أودت بي إلى الشرود والتعقيد، انتابني وجس من قدوم الغد وأنا أعيش ذلك الروتين المنهك، كأن طائر الشؤم قد حط على قدري. أضحت نوبات الشوق تراود حفيظتي كعواصف الشتاء، تزكم أنفاسي، تشتت ظني، وتدفعني إلى الانكماش والسكون داخل غرفتي، دون أن أجد مسلكًا أنفذ منه إلى حالتي الطبيعية.

كانت حالة قسرية شكمتني بالجمود والاحتباس، ليس لها شكل ولا لون، سوى أن أتحمل القدر الذي أعماني. صارت تلك

الأوضاع ترتاد فكري بشكل روتيني، تثبر لحظة حفيظتي، وتغز الأمل قبل أن تطفح على شبكة الذهن كواقع حال. تجعلني أستشعر بالندم، بطاقة ممغنطة بتشنجات الغربة، تمنعني من التحرر، أهجس بها كتلك التي تسري بأسلاك الكهرباء، تنتهي بحرق فتائل الشوق في المسالك المظلمة... هكذا وجدت ذاتي مأسورة بتلك الطاقة السلبية في مدينة كمنتس الالمانية، فلن يستقر مزاجي إلا بلقاء حبيبتي. تلك الطاقة إن لم أحرقها بذاتي، ستحرقني، ولن تلمع صدفية حياتي.

منذ أن سكنت ديار الغربة، وأنا أدور في دوامة العقد، ككوكب انحرف عن مداره. كنت أحاول أن أستجمع قواي على إدارة محور الصبر، بالقراءة، وتشريع حالة الصياعة، لغاية تجاوز الأزمة، عسى أن أشفي غليلي، أو أعود أدراجي لحبيبتي.

وفي ظل تلك الظروف الشظفة، تطلعت عبر نافذة غرفتي إلى المنظر الخارجي، إلى الشارع العام المار بجانب العمارة التي أسكن بها، علني ألهي فكري بشيء ما يشغلني. وإذا بي ألاحظ في موقف الباص طيرين من طيور الجنة، يغدقان حبًا، يرفرفان بأجنحة الشوق، يهدلان بعشق منقطع النظير، في ظل سقوط شفيف من وفر الثلج.

طائران بعمر الورد، دون سن البلوغ، تلميذان من تلامذة المرحلة الثانوية، يرتديان السحر والأناقة كجلباب من الجاذبية.

تهجست بهما كفاكهتين مختلفتي الألوان، معلقين بغصن الشوق، بخيط متين من الود والمحبة.

كان الفتى حميمًا، ساحرًا، يحمل حقيبته المدرسية على ظهره، بقوام جسمه الرشيق، وحسن ملامح وجهه. فيما كانت الفتاة تبدو كزنبقة، كفراشة ربيعية لطيفة، جذابة، مغترة بضوع ذلك الشاب الأنيق، تحاول أن تلطف بهاءه ببهاء حسنها الأهيف، تخفق بجناحيها وروحها برقة في ميدان عالمه المغنج، تمسح الثلج عن وجهه وأكتافه.

كانت تدور حوله، طرحت حقيبتها أرضًا، كي لا تربك مزاجها العالي، ولا تثقل كاهلها، كأنها تدور حول زهرة لجاذبيته المبهرة، تعانقه، تقبله، ترقص حوله كفراشة تحت رذاذ الحب.

كانت لأناقتها وسحر جمالها تبدو كضفيرة طفلة، مزهوة بشريط عمرها وربيع فتنتها، متلألئة، أنيقة جدًا، بلبسها العسكري، وفتنتها، ولون بشرتها، وحلو شعرها الأشقر. تود أن تطير به إلى فردوس الأحلام، وهي تنثر شعرها الذهبي على كتفيها، يتلاعب به نسيم مائج بوفر الثلج.

أما هو، فكان يقف أمامها مبتسمًا، كغصن بان، يرفأ بظل استقامة الخيزران. يبادلها الأشواق بحرارة، يذلل لسعة البرد وقسوة الطقس. كان يزيدها طولًا بمقدار شبر، لذا حين تقبله، كانت تقف على رؤوس أصابعها، تحلق بيديها عنقه، تجبره على الانحناء، حتى يدك فاهها فاهه.

كانت ترتدي بنطالًا جرسيًا عسكريًا، مقورًا من الركب، وبلوزة خضراء ملتصقة على الجسد، وسترة قصيرة بنية فوق الخصر، فيما كان هو يرتدي بنطالًا جينز أسود، وبلوزة بيضاء ناصعة، تعكس لونها على بشرته البيضاء، فيبدو كمرآة عاكسة، يثير الحشرات من حوله، فتحترق أم الجناحان بالقبل تحت رذاذ الحب.

كان يقف أمامها كالطود، واثقًا من نفسه، يفيض سحرًا، جذلًا، مسرورًا، يتطلع إلى حركاتها ورقصاتها بابتسامة بريئة، يحادثها، يحثها على تأملاتهما المستقبلية، يرفقها بشحنة من شواظ الحب المعنى، المفعم بالغرام والوله والصبابة.

وأنا أراقبهما عن بعد، كأني أسمع حوارهما وتهامسهما رغم المسافة، أهجس به أشد فرحًا بها، يكبلها بلاعج أشواقه وفتنته، متحمّلًا جلد الطقس، رابضًا معها في الموقف حتى يحين موعد الباص لينقلها لقريتها.

ما لفت نظري هو اندماج طيفيهما في لوحة تعبيرية، لم تهتز مشاعرهما رغم زمهرير الريح والطقس العاصف، وكأن الحرارة المشعة من دواخلهما تطرد غثاثة البرد، يتحركان ويتناغمان بشغف كعصفورين يستحمان في بركة، أحدهما يود أن يقضم فتنة الآخر برغبة.

تماديت في مراقبتهما، كأنهما ذكّراني بطفولتي الكئيبة، التي مضت دون أن تبرق فيها بارقة صبح، دون أن تحيل صبري إلى أمل أتغنى به.

وما أن دنت لحظة اقتراب الباص، حتى اشتد التناغم بينهما، صار العزف يرطن بالأحداق والأذان، أدركا لحظة الوداع، فطفقت إليه وسرقت من شفتيه قبلة طويلة، ثم ارتمت بأحضانه، واضعة رأسها على كتفه بلهفة وحنين. ارتدت حقيبتها، ولوّحت له، ثم صعدت الباص إلى قريتها "مارين بري"، فيما عاد هو إلى وكره، يسير على قدميه، يتأمل طيفها في مرآة قلبه، تحت سقوط الثلج الذي اشتد بعد الفراق، ليحرق ذاته بذكريات تلك الساحرة، وهو يتأمل طيفها في حدقات ظنه، بدموع الوداع.

لتبقى تلك القبل كإبر تشك الشفاه حتى اللقاء القادم.

بفراقهما، هجست بأحوال الجو أظلمت، لتبقى أطيافهما في موقف الباص تذكرني في موضع الأناقة، مثل نبتة ترتأي سقوط المطر. هجست بذلك اللقاء يشبه عواصف الشتاء، وهي تجلد العشاق بين الأحايين.

رقصة الحلم

لم يخفت رنين الشوق عن وقع قدمي جنان قط. كانت خطواتها تنساب نحو وهدة السكينة والصمت، حيث تهيم بخيالها، تقوده هواجسها ومشاعرها إلى باحة الحبيب، فتغرق في هوس طيفه، وتذوب في هواه. لا يعيدها إلى عالمها المادي سوى إغفاءة خاطفة تسرقها من شرودها، أو طارئ يطرق بابها دون موعد.

شاقها الحظ، فنسج ضفيرة صبرها بخيوط من العناء والكرب، حتى اختنقت أحلامها في مساءات الحسرات والألم. هجست بذبول لون شبابها بعد وصولها إلى الكامب بفترة وجيزة، وكأنها ندمت على استعجالها الزواج قبل أن تستكمل دائرة الهجرة إجراءات الإقامة وملحقاتها المعقدة. لم تتحسب لروتينية الإجراءات الألمانية، خاصة النفس الطويل الذي تتعامل به مع العرب والمسلمين، فجاءت النتائج عكس توقعاتها، وتناقضت مع رغباتها النفسية.

اختلطت عليها التصورات، وتاهت الحلول، حتى غدت كعجينة الورق، تسطر عليها الأحداث والأقدار كيفما تشاء. باتت رقعة مجدولة في دورق الشك، مليئة بالعُقد، بلا خيوط تفكها، ولا يد تنتشلها من غرقها.

في إحدى ليالي الشتاء، وبينما كانت تجلس على سريرها في الغرفة الضيقة، تلتحف صمتها وتراقب قطرات المطر وهي تنقر نافذتها، جاءها اتصال من مكتب الهجرة. صوت الموظفة

كـان رتيبًـا، لكنـه حمـل بشـرى الموافقـة علـى الإقامـة الدائمـة. لـم تصـدق أذنيهـا، فغرقـت فـي بكـاء صـامت، كأنمـا انسـكبت كـل سنوات الانتظار في لحظة واحدة.

فـي اليـوم التـالي، خرجـت جنـان إلـى المدينـة، تمشـي بخطـى ثابتـة، تحمـل فـي حقيبتهـا أوراق الإقامـة، وفـي قلبهـا بـذرة أمـل جديـدة. جلسـت فـي مقهـى صـغير، طلبـت فنجـان قهـوة، وكتبـت أول سـطر فـي دفترهـا الجديـد: "ربمـا لا نختـار الأقـدار، لكننـا نملك أن نعيد تشكيل أنفسنا من بين شقوقها."

النهاية

للكاتب أحدى وعشرين كتابا
بين روايةً ومجموعةً قصصيةً

المؤلف : عباس مدحت البياتي

الروايات

1- لغز اللؤلؤة
2- قناة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقداح المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- القراع
11- القمة
12- عقاب الذات
13- الرؤيا

مجموعات قصصية

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني

المصيبة التي أرهقت ذلك الشاب؛ بأن أميمة بوجهها العابس، الغاضب، تبدو أشد فتنة مما وهي تبتسم، هجس بنور وجهها وهي جانحة بسخطها كنور القمر في واحة السَحَر، فيها فتنة مرهفة، مراءة، أرهقت ناظره، لما فيها من ودق أغشت بها لهيب فؤاده، هجس بذلك الألق وهو يشتط من فتنتها كشعل

لذا فكر أن يتبعها دون أن تعلم به؛ حتى يتعرف على رقم غرفتها، ليعود إليها بعد ان تعرفت على غايته، ليفتح لها صنبور أشواقه، عسى أن ترهف به وتلين أمام عصفه.... كأنَّه شعر بذاته قد أخطأ في سلوكه الهمجي بمعاكستها في الطريق، لذا أراد أن يبهج قلبها بشبابه بلحظة صمت، عسى أن يقطف منها نظرة أعجاب تريح أعصابه.